باغاتل

رواية ــ ٢٠١٩

د. سلاهب طالب الغرابي

اسم المنجز : باغاتل

الجنس الأدبي : رواية

الطبعة الأولى : لسنة ٢٠١٩

القياس : ١٤ * ٢١ سم

لوحة الغلاف: سلاهب الغرابي

عدد الصفحات : (١٤٩)

عدد النسخ : ٣٥٠

~~~~~~

تنفيذ الانجاز...طباعة وتصميم (المتن) العراق ــ بغداد هاتف_٠٧٧٠٧٠٧٩١٩٠ (واتساب و فايبر وتلكرام)

فيس بوك _ amtm_a@yahoo.com جيميل _ aaaaaa19721@gmail.com

Graphic design and printing by Al-Maten house for printing and publishing

Contact phone number

What's up and Viber __ 07707079190

جميع الحقوق محفوظة ــ رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق العراق ـــ بغداد () لسنة ٢٠١٩

All rights reserved

Registration number at Iraq National Library and Archive ()2019
~~~~~~

باغاتل

رواية ـ ٢٠١٩

د. سلاهب طالب الغرابي

الطبعة الاولى ٢٠١٩

الإهْداء

إلى الجُنودِ الصَّابرينَ في معركةِ الحياةِ

إلى رَمْزِ القُوَّة والإرادةِ

إلى مُحاربي مَرض السَّرطان

بسلاحِ الصَّبر

طعِّموا إيمانُكم بالدُّعاء

لِتمُتْ مخاوفكُم جُوعاً

واقبَلوا التحدي

حتى تنتصِرُوا بعَونِ اللّه

الفصل الاول

كانتْ البيئةُ فارغةً، العَدوّ خفيّ، واعتدتُ على مغامراتي الفرديةِ النابعةِ من التجربةِ، كانتْ أفعالي بلا عقاب إختلطتْ الساعات، فتناسلتْ الأزمنة، يوم السبت ١٤ مايو ١٩٨٣ / ٢شعبان ١٤٠٣ عند الساعة الثالثة عصراً، في مستشفى صيدا، كنتُ جالسةً على أريكةٍ قديمةٍ وأمامي باب الغرفة ومن الجانب الأيمن سريران لسيدتين وكانتْ إحداهنّ على وشك الولادة ، اخرجوا واحدة وبقتْ الأخرى وحيدة متألمة وكان فستانها أبيض نُقِشَت عليه ورود زرقاء وكأني شاهدتها سابقاً ولكن كان يجتاحني نعاساً فلم أذكر أين شاهدتها؟ لم أشعر بالخوف، شعرتُ بالدّهشةِ والسكون فقط الى أن غفوتُ قليلاً وسرعان ما أوقظني صراخ السيدة وبكاء الطفلة لحظة ولادتها وسألتُ نفسي أين أنا؟

فتحتُ عينيّ لم أهتم لشأن السيدة بالرغم من ألمها وصراخها ونظرتُ للصغيرة وكنتُ حينها عرضةً للهلوسات، فشعرتُ بضربةٍ على ظهري وتكرر هذا الشعور عندما ضربتْ الطبيبةُ على ظهر الصغيرة فتقدمتُ نحو الطبيبةِ كي أوقفها عن فعل ذلك، وحاولتُ أن أمنعها ولكنها لم تنصتْ لي اطلاقاً فإقتربتُ اكثر تصاعدتْ إليّ رائحةُ الدماء التي اكتسى بها جسم الفتاة الصغيرة، شعرتُ بالغثيان وأحسستُ برغبةٍ في التقيؤ، وتصلبتْ أطرافي فسقطتُ

أرضا وشعرتُ بظلامٍ مُطبق وكأنني في غيبوبةٍ أسمع اصواتاً بعيدةً خافتةً تهمس من حولي وكأنها لاتريد ارباك غفوتي واجتمعتْ لتقول لي: أنتِ في مدينة صيدا [1].

اِستمرتْ غفوتي وكانتْ لديّ رغبة أن أذكر أين شاهدتُ السيدة التي ولدتْ الصغيرة؟

وحلقتُ في سماء مدينة صيدا ثم هبطتُ منخفضةً بين الأزقة وقت الغروب لحين أن وصلتُ لسطح منزل شاهق يكاد ان يكون بناءه اسطوري، وأثارَ دهشتي لِما يحمل من طرازٍ قديم مكون من ثلاث طوابق؛ والطابوق اِعتلاه الأملاح، كانتْ الأضواءُ خافتةً جداً وفي داخلي يقين هذا هو العنوان الذي بحثتُ عنهُ.

---

(١) تعد صيدا من أقدم مدن العالم الشهيرة بمرفأها وقلعتها، وثالث أكبر مدن لبنان واكبر مدن محافظة الجنوب؛ الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط و تبعد مايقارب ٥٠ كم جنوب العاصمة بيروت.

مشيتُ بمُحاذاةِ السياجِ الرباعي للطابق الثالث، وأنا أنظر للأسفلِ فلم أرَ سوى أبواب الغرف ولم أجد احداً يتجول في فضاء البيت كان الصمتُ يعمّ المكان؛ فهبطتُ بسرعةٍ لأحسم مُهمتي، وفي لحظات هبوطي شعرتُ بشيءٍ جديد يدخل حياتي وكأن حياتي القديمة تسقط عني شيئاً فشيئاً كالرداء.

هبطتُ للطابق الأول وجدتُ يساراً قرب باب المنزل امرأة ثلاثينية، حامل بأشهرها الأخيرة، حسنة الشكل، عيناها عسليتان وواسعتان، وشعرها الرتيب لكتفها متدلياً مرتدية فستان اِتشح بالورود الحمراء، اِقتربتُ منها وراقبتُ ملامحها الصارخة بالخوف وكأنها شعرتْ بوجودي إلا انها لم تراني.

فأغمضتُ عيني واتجهتُ لبطنها نحو جنينها فصرختْ المرأة وكأنها صُعِقت فوجدتُ الطفلة فتحتْ عينيها وقالتْ:

- أين أنا ؟
- في بطنِ أمكِ ..فقط نامي.

أما أنا فشعرتُ بظلمةٍ واِحتبس الهواءُ بصدري منتظرة الخروج؟

فارقتني أفكاري التي لاعلاقة لها بالأرض، وبدأ ذهني ينصرف لأفكارٍ أخرى؛ حاولتُ أن أفتح عيني و نجحتْ

محاولتي وفتحتُ عينيّ لأجد نفسي في السرير قرب نفس السيدة التي أنجبتْ الصغيرة تريد حملي فبدأتُ أصرخ !

لكن لم يكن لي صوت فأين صوتي؟

أين قوتي؟

يا إلهي!، ما الذي جعلَ مني صغيرة وهكذا مقيدة؟

في تلك اللحظة توقفتْ حياتي على هوامش البدء والإنفراط حاولتُ أن أتكلم رغبتُ أن أصرخ هاربة منها إلا اني كنتُ عاجزةً عن فعل أيّ شيء وبعدها عمَّ الظلام مجدداً.

وبعد ساعات جاءَ أبي وظن بأني صبي، وكنتُ أسمع صوتهُ وحاولتُ أن أفتح عينيّ كَي أراهُ فوجدتهُ وسيماً بزيه العسكري، سمعتُ همساً يخبرني بأنهُ منشغل في الحرب الأهلية والتي اندلعت منذ عام ١٩٧٥، رغبتُ أن أستنجد بهِ ليُحررني من سجني لكن كيف؟ وأنا لا أقوى على فتح عينيّ وسمعتُ اِتفاقهم على تسميتي باغاتل وما أذكره خطواتهم وهم حامليني عائدين للمنزل وعندما وصلنا ليلاً لمنزل جدتي، وكانتْ جدتي سناء بالإنتظار حملتني قبَّلتني، وفرحتْ بأسمي لِكونهُ كان من إختيارها.

ألم يحاصرني من جميع الجهات وكأني أحتضِر

أيّ قدر هذا ومتى سأتخطى هذا العُمر؟

أنا لستُ أنا .. بعدما كنتُ محلقةً في السّماء .. لاقيد لي ولاعنوان .. أدركتُ أن كُلّ شيءٍ غريب عني، أصبحتُ رهينةً لجسم صغيرة لم يتجاوز عمرها عن يومٍ واحد.

مرتْ الأيام وعانيتُ ماعانيتُ وكان أشدها الصمت لكوني عاجزة عن الكلام .

شيئاً فشيئاً أدركتُ أن لي أختا اسمها سالي وكانتْ تكبرني بثلاثِ سنوات، حيث كانتْ تصطاد الفرصة لتأتي وتضربني لكونها تشعر اني سرقتُ اهتمامهم لي وهملوها وكنتُ أفتعل البكاء لإبعادها عني .

كنتُ في بحرٍ من التساؤلات غارقةً يلتهمني تضارب أفكار من مختلف الأزمنة وبأن لي دور ووقفتُ عن إدائهِ لكوني عدتُ للطفولة والمشكلة أنا لا أتذكر أسمي أو عنواني حتى أفكاري كانتْ تخونني.

ومرتْ الأيام والشهور وأنا كما أنا.. أفهم مايتكلمون وعاجزة على الرد .. عشتُ بصراعٍ الى أن انصعتُ ورضختُ للواقع وسلمتُ أمري لمن خلقني وكنتُ أجهد نفسي واجبرها على أن تصبر وكنتُ أردد بأني لن أخلد وساعات العذاب ستنتهي .. كنتُ أرى مالم يروا .. تارةً أصمتُ وتارةً أخرى أبكي .

ومضتْ أربع سنوات، وجدتُ جدتي وأمي وأبي وأختي يحبونني، ويتسابقوا لرسمِ البسمة على شفاهي فقررتُ التأقلم معهم رغم الطوق الذي أشعر به حول عنقي يخنقني.

كان أبي يحملني معه ليلاً لسطح المنزل حيث هبطتُ أول مرة، وكان يتأجج خليط مشاعر أسىً ورضا، وكانوا يفترشوا السطوح صيفاً لينام فيها ولكن كنتُ لا أنام لكثرة البكاء والكلام من حولي، وكنتُ اتعاطف معهم بقدر مخاوفي منهم وأهرب من مواجهتهم وأكتفي بحضن أمي بشدة وأنا أغمض عينيّ، وفي إحدى المرات أرعبني رجلاً ، فنهضتُ شاهدته رجلاً طويلاً أسمر اللون شعره الأسود المجعد الطويل يثير خوفي واشمئزازي، كانتْ تعابير وجهه كدرة وشريرة وبانتْ ملامح الشر على وجهه وقال ساخراً:

- أين قوة التحدي فيكِ؟ وكان مستخفاً بي شامتاً.

حينها تفجر رعبي وقلتُ له :

- مَن أنت؟

أجابني متبجحاً: أنا ناصور !.

زادتْ مخاوفي، وحاولتُ ايقاظ من قربي لم انجح فصرختُ أبكي فأستيقظتْ أمي وسألتني مما أعاني فخجلتُ منها.

وقلتُ لها:

- أريد أن أنام قرب جدتي .

استيقظَ أبي فقال:

- لاتخافي ياحبيبتي مابكِ ؟

قلتُ لهُ :

- رجل طويل كان واقف هنا، واشرتُ لهُ بأصبعي السبابة .

فقال مبتسماً:

لايوجد أحداً سوانا ياعزيزتي.

حينها فاجئني الرجل الطويل وضربني بقدمه على وجهي فصرختُ بحدةٍ من شدة الألم وبكيتُ.

- قالوا: مابكِ؟

لايوجد أحداً سوانا ففشلتُ من نفسي .

- قلتُ لهم: أريد جدتي فأنزلوني لها حيث كانتْ تنام في غرفتها في الدور الأول وتكررتْ هذه الليالي عليَّ وبينَ حينٍ وآخر اسأل نفسي أين أنا ؟

وفي كل الصباح كانتْ كل من جدتي وأمي تهيئان الفطور وكنتُ انتظر البيض المقلي المخفوق مع الشاي بفارغ الصبر كما كنتُ افضل الصمون الفرنسي على

الرغيف المتوفر آنذاك، وكان أبي يقطع مسافة طويلة مشياً وكان يجلبه لي ليثير بهجتي منذ الصباح، وكنتُ في الغالب أتذمر اذا اقترحوا عليَّ أن أشرب الحليب!.

علموني على النظام حيث أضع كلّ شيءٍ في مكانه الصحيح وكنتُ أساعد جدتي في التنظيف، وهي كانتْ سعيدة بي وبدقة التي اقتبستها منها في تنفيذ الأعمال إلا أن والدتي كانتْ لاترغب بذلك لأنها لاتريد إرهاقي ولكن الحياء من والدتها جعل منها لاتمنعني.

كانتْ أمي سعيدة بي وكنتُ أشعر بمدى بهجتها كلما كانتْ تسرح لي شعري بالمشط الخشبي وتعمل لي الجدائل وتقبّلها مترقبة متى يطول شعري أكثر؟ كانتْ معجبة بشعري الطويل وبلونه الأسود الداكن، وكلما تخرج تشتري لي الكثير من بروشات الشعر والباندات الملونة وبقدر ماكنتُ فخورة بشعري الطويل كانتْ في داخلي رغبة مُلحة لِأقصَ شعري ولكن لم أفصح عن هذه الرغبة لأمي خشية منها.

وفي أحد الأيام كنتُ جالسة بصمتٍ في الغرفة سمعتُ صراخ جدتي فهرعتُ لها مسرعة للدور الثاني وسألتها:

- لماذا تبكين؟

- ماتَ أخي سامي واستمرتْ بالبكاء تألمتُ عليها ولكني لم أتمكنْ من منعها .

إتجهتُ حيث كان يسكن أخوها الأعزب المسن لغرفته الصغيرة التي لطالما كان يهتم بنظافتها وترتيبها، دخلتُ برهبةٍ فوجدتهُ مفترشا الأرض مستلقي على ظهره وابتسم بلطفٍ كاشفاً عن اسنانه الباهتة وقال: اخبريها ألا تلطم.

فصرختُ وقلتُ لها:

- لم يمتْ.

إلا انها لم تنصتْ لي أساساً، وسرعان ماجاؤوا وأخرجوني من الغرفة، بعدما غطوا وجهه بشرشفهُ الأبيض الفواح برائحة مسحوق الغسيل وتسرب عطره في أرجاء الغرفة .

وبعد يومين من مراسيم العزاء أخذوني معهم للمقبرة .. وهناك كانتْ الصدمة .. الصراخ يطوقني .. وكان هنالك مَن يرغب أن يكلمني .. وكنتُ بحالةٍ ذعر فريدة من نوعها وأمشي ونظري للأرض، ويضيقُ بي نفسي البعض اكلمهُ بنظري والآخر أجيبهُ بصوتٍ مسموعٍ .

الغريب كل من رآني ناداني بإسمي رغم عدم معرفتي به كان أغلبهم رجال وكأنهم يبحثون عن منصتٍ لهم ولو لِثوانٍ والى أن عدنا للمنزل وسألتُ جدتي:

- هل سمعتي بكاء اخوكِ جدي سامي؟

- ‹ها! لا فهو ميت ياحبيبتي ماقالته جدتي.

ذهبتُ لأبي وكان منشغلاً بالأخبار؛ وسألته:

- هل الأموات يتكلمون؟

قال لأمي:

- لماذا اخذتي باغاتل معكم؟

فهرب من الجواب بمشكلة عتابٍ مع أمي .

وفي تلك الفترة الحرب الأهلية مستمرة وقبل الحرب، كانت لبنان متعددة الطوائف ، حيث كان المسلمون السنة والمسيحيون الأغلبيات في المدن الساحلية، حيث كان المسلمون الشيعة في الأساس في الجنوب ووادي البقاع إلى الشرق، وكان أغلب سكان الجبال من الدروز والمسيحيين.

و كانت الحكومة اللبنانية تدار تحت تأثير كبير من النخب بين المسيحيين المارونيين [٢]؛ وتم تعزيز الصلة بين السياسة والدين في إطار ولاية القوة الاستعمارية الفرنسية في الفترة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٣، وكان الهيكل البرلماني مؤيداً لموقف قيادي بالنسبة للمسيحيين.

ومع ذلك، كان لدى البلد عدد كبير من السكان المسلمين، كما أن العديد من جماعات عموم العرب واليسارية قد عارضوا الحكومة الموالية للغرب.

---

(٢) هم المواطنون اللبنانيون الذي يتبعون الكنيسة المارونية ويعتبرون من أكبر الطوائف المسيحية في لبنان وجاءت التسمية نسبة لمؤسسها القديس موران الذي يعتبر واحداً من أشهر الشخصيات السوريّة السريانية الكنسية وعاش في القرن الرابع، وكلمة موران في السيريالية تعني "سيد السادة أو السيد الأكبر" وتستخدم في اللغة السريانية كإحدى ألقاب اللّه . وتقدر اعداد الموارنة في العالم اكثر من ثلاثة ملايين نسمة وثلثهم في لبنان ويشكلون ٢٢٪ من مجموع سكان لبنان المنقسمين إلى طوائف عدة.

وقد ساهم إنشاء دولة إسرائيل ونزوح مئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان خلال عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ في تغيير التوازن الديموغرافي لصالح السكان المسلمين. وكان للحرب الباردة تأثير غير تكاملي قوي على لبنان الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحالة الاستقطاب التي سبقتْ الأزمة السياسية في عام ١٩٥٨، منذ أن انحاز الماروني إلى جانب الغرب، في حين انحازت المجموعات اليسارية والعربية إلى جانب الدول العربية المنحازة الى الاتحاد السوفييتي.

وقد بدأ القتال بين الموارنة والقوات الفلسطينية (معظمهم من منظمة التحرير الفلسطينية) في عام ١٩٧٥، ثم شكلت الجماعات اليسارية [٣] والعربية والإسلامية اللبنانية تحالفاً مع الفلسطينيين خلال فترة القتال، تحولتْ التحالفات بسرعةٍ وبشكل لا يمكن التنبؤ به وعلاوة على ذلك شاركتْ القوى الأجنبية، مثل إسرائيل وسوريا، في الحرب وحاربت جنباً إلى جنب مع فصائل مختلفة وتتمركز أيضاً قوات حفظ السلام، مثل القوة المتعددة الجنسيات في لبنان وقوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان .

---

(٣) القوى اليسارية اللبنانية بدأت تتبلور هويتها رسميًا بعد استقلال لبنان عام ١٩٤٣ وانتشار الأفكار الشيوعية والاشتراكية وكانت البداية الفعلية لليسار مع تأسيس الحركة الوطنية اللبنانية سنة ١٩٦٩ وضمت الحركة الوطنية أحزاب وحركات قومية ويسارية على أساس برنامج مشترك ينادي بإحداث إصلاحات سياسية واقتصادية، إضافة إلى الإعلان الواضح لعروبة لبنان. تحالفت الحركة مع بداية الحرب مع منظمة التحرير الفلسطينية في مواجهة الجبهة اللبنانية اليمينية ذات الأغلبية المسيحية، وحققت الحركة نجاحات عسكرية في بداية الحرب ولكن بعد اغتيال المفكر والزعيم الدرزي كمال جنبلاط في ١٦ مارس ١٩٧٧ فقدت الحركة الكثير من دورها، وما لبثت أن حلت فعليا مع الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ وحلت مكانها جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية (جمول) التي نظمت عملية المقاومة المسلحة للاحتلال الإسرائيلي واستمرّ النشاط العسكري للجبهة منذ ١٩٨٢ الى ١٩٩٠.

وفي عام١٩٨٩ كان اتفاق الطائف بداية النهاية للقتال وفي يناير ١٩٨٩ بدأت لجنة عينتها جامعة الدول العربية في صياغة حلول للنزاع .

وفي ذلك العام أنا بلغت السنة السادسة من عمري وسجلوني في مدرسة القدس الإبتدائية، زاد الوضع سوءاً فكنت أرى مالم يروا، وكنت قليلة الكلام وكنت أخشى أن يسخروا من اسمي الذي لم أكن أعرف حتى معناه آنذاك.

وكان أول يوم لي صعب وذهبت للمدرسة مع أبي الذي أوصاني ألا افتقدهم وألا أبكي وألا أخرج الى ان يأتي ويأخذني بنفسه، وكنت استغرب من توصياته التي لاتغيب عني لأني لست بصغيرةٍ لهذه الدرجة، ولأني أعلم مدى حرصه أنصعت لهُ بهدوء وقلت : حسناً.

ودعتهُ ودخلت للمدرسة وكنت أعلم هو بالانتظار خلف سياج المدرسة .

دخلت المدرسة ووجدت الكثير من التلميذات بعمري غارقات بالبكاء وأيّ واحدة اسألها لماذا تبكين ؟

كانت تقول لي: أريد أمي .

وكنت أطمّنها بأنها ستعود قريبا للبيت وسترى أمها.

ثم نظرتُ بعيداً وجدتُ تلميذةً وحيدةً لاتبكي وكانتْ تقف قرب أمها تقدمتُ لها وسألتها:

- ما اسمكِ؟

- قالتْ: نور

وسألتها وكنتُ مبتسمةً:

لماذا لاتبكين ؟

- قالتْ: لأن أمي ماتتْ منذ عدة سنوات.

فحزنتُ لأجلها وقلتُ لها:

- وهذه المرأة التي بجانبك أليستْ أمكِ؟

- قالتْ: لايوجد امرأة أتسخرين مني أم أنتِ عمياء؟

وتركتني وبقتْ السيدة قربي وقالتْ:

- لاتحزني فكلامها صحيح أنا ميتة منذ ست سنوات وهي لاتتمكن من رؤيتي .

- فقلتُ لها: كيف اكلمكِ ان كنتِ ميتة؟

- قالتْ: لا أعلم لعلّكِ تشاهدين الأموات .

وتركتني هي الأخرى؛ فإنتابني خوفاً حتى من أنفاسي التي كانتْ توتر مسامعي ولكن توجد قوى جبارة تدفعني أن أصمد وأكون كباقي الفتيات كي أكون طبيعية.

وبشقٍّ الأنفس أتممتُ اليوم الأول والذي كان اختباراً شاقاً.

ومضتْ السنة الأولى وكنتُ متفوقةً جداً بالرغم من عدم المطالعة اليومية وكان والديّ مهتمين بتدريس أختي سالي أما أنا فكنتُ أهتم برسم شخصيات كنتُ أراها وتختفي وكنتُ سعيدةً بإنشغالهم عني حيث استرق السمع لهم احياناً لأحفظ القصائد وجدول الضرب لأنها ستفيدني في المراحل القادمة.

وتكررتْ اللقاءات مع أرواح الأموات التي كانتْ تخيفني واتخوف حرجاً من نظر الآخرين لي ان علموا بأمري وكنتُ أسعى رسم كل مَن أشاهد وان كانتْ رسوماتي ليست سوى خربشاتٍ آنذاك إلا انها أغلى ما أملك .

وفي نهاية الصف الثاني الذي استهللته برغبةٍ أسابق عمري وانهي رحلتي المجهولة انتهتْ الحرب ١٣ اكتوبر ١٩٩٠ والتي أسفرتْ عن مقتل ما يقدر بـ ١٢٠ ألف شخص والكثير من المشردين داخل لبنان كان هناك أيضاً نزوح لما يقرب من مليون شخص من لبنان نتيجة للحرب.

وفي مايو ١٩٩١ ، حلتْ الميليشيات، بِاستثناء حزب اللّه، في حين بدأت القوات المسلحة اللبنانية في إعادة البناء ببطء باعتبارها المؤسسة الوحيدة الرئيسية غير الطائفية في لبنان ظلت التوترات الدينية بين السنة والشيعة بعد الحرب.

كان الكثير يزُرني ليلاً وفي أي وقتٍ ليحكوا لي روايتهم لم أساعدهم بشيءٍ سوى أن انصتُ لحكاياتهم، وكانوا يطالبوني بالدعاء لهم أحيانا .

فقررتُ ان اسأل أبي:

- كيف أدعو للميت؟

فقال لي :

- يجب أن أعلمكِ الصلاة أولاً وعلمني إياها وكيف اقرأ سورة الفاتحة وأهدي ثوابها للأموات وكيف أستغفر لهم .

ثم سألتهُ بإحتيالٍ ..فقلتُ لهُ:

- زميلتي هدى في المدرسة تقول لي إن جدها الميت تكلمهُ عندما يأتي لبيتهم ؟

- ماذا ؟ مستحيل! أتركيها هذه مجنونة هكذا كان جوابه لي .

- سألته: لماذا؟

- فأجابني: نحن لانرى الأموات يا عزيزتي.

فزاد الأمر تعقيداً فخفتُ أن أتهم بالجنون فقررتُ أن ألزم الصمت وأنا بداخلي أندب حظي وأردّد مع نفسي أين أنا؟ ومتى سينتهي عمري؟

ومرتْ السنين وأنا على ذاك الحال، وانتقلنا الى حي المنارة في رأس بيروت حيث مكان العمل الجديد لأبي في الحسابات المالية لقطاعٍ خاص في شركة إستيراد للأجهزة المنزلية وتم نقلي لمدرسة مختلطة هناك وكذلك أختي سالي، وأن مدرستي الجديدة كانتْ مختلطة وهذا ما لم اعتاد عليه، وخاصة بعدما قضيتُ ثلاث سنوات في المدرسة السابقة واعتدتُ على الأناث فقط.

أخبرتهم بأني لا أريد الذهاب لهذه المدرسة.

فكنتُ أخشى الأولاد من أن يضربوني ولكنهم أصروا على التحاقي بالدوام ووعدني أبي إنه سيأخذني برحلةٍ معه الى طرابلس التي لطالما حلمتُ بزيارتها وسيحقق حلمي إن وافقتُ على الدوام، ولكني بقيتُ على قراري فصرخ أبي بوجهي قائلاً:

- لماذا اختكِ الكبيرة سالي لم تعارضنا يوماً بينما أنتِ دوماً تعقدين الحياة؟ .

وأمعن النظر بأمي وبنبرةٍ حادة كلمها:

- ‹كُلّ هذا من سوء تربيتكِ يا فردوس!›.

- فأجابتهُ : بل تربيتكَ ياعلي !.

وشدتني بقوةٍ من يدي وخرجنا من الصالة للغرفة، وطلبتْ مني ان أوافق على الدوام في هذه المدرسة لأجلها فحاولتُ ألا اخذلها.

وافقتُ والتحقتُ بالمدرسة وكنتُ حذرةً اتهجسُ خطواتي مطأطأة رأسي للأرضِ وأنا أمشي، وبعد أيام من ذلك وجدتُ مضايقات بعض الأولاد للبنات كأن يدفعوهنّ من السُلّم أو يأخذوا منهنّ النقود عنوة .

كنتُ أدعي بداخلي ألا يقترب مني أحدهم فلا أعلم كيف أواجه ضعفي المفروض عليَّ؟

وحدث ماكنتُ أخشاهُ .. في أحد الأيام ركلني أحد التلاميذ بكُرةٍ على ظهري فإستدرتُ فوجدتهُ عادل والذي كان طويلاً وبشرته بيضاء شاحبة، وملابسه قديمة حتى رائحته دلت على قلة استحمامه وقال لي:

- اعطيني نقوداً أو أي شيءٍ لديكِ.

- لا أملك شيئاً .

فسحبَ حقيبتي بقوة وأخذَ يُفتش فيها ولكنهُ أوجع قلبي حينما سحب دفتر الرسم الذي رسمتُ به كل أصدقائي الأموات حينها قال لهُ زميلهُ الأسمر البدين أسامة خُذهُ ياعادل

.

ورموا بحقيبتي أرضا وشرعوا بأولى خطواتهم مدبرين عني فتفجر غضبي على لوحاتي فضربتُ عادل على ظهره بحقيبتي فتأرجح واستدار ليعرف مَن فعل هذا ؟

فرآني أضربهُ بكل ماأملك من قوةٍ؛ سقط أرضا وهربَ زميله واخذتُ من عادل دفتري وذهبتُ لأستهل دروسي وكنتُ أشعر بالذنبِ ان قسوتُ عليه وكنتُ أهوّن على نفسي بأنهُ يستحق لأنهُ اِعتاد على اِيذاء التلاميذ من الذكور والأناث .

وعدتُ للبيت اتأمل بحال عادل ما الذي يدفعه للقيام بهكذا أعمال همجية بالرغم من صغره، فسألتُ أبي:

- لماذا بعض الصبيان يطلبوا طعاما او نقوداً من الآخرين؟

فأجابني:

- إنها الحاجة والفقر تدفع الانسان أن يكون مجرماً بحق نفسهُ والمجتمع ثم قال:

قال امير المؤمنين علي (عليه السلام) : لو كان الفقر رجلاً لقتلتهُ .

كنتُ أصغي لهُ ، ثم فاجئني وقال مبتسماً:

- أعلم انكِ لم تفهمي شيئاً مني عزيزتي.

- فقلتُ له: لا يا أبي فأنا فهمتُ ماقلتهُ؛ ونصحني في العطلة أن اقرأ (نهج البلاغة) وقال لي :

- فيه ماسيفيدكِ وسينير فكركِ ووعدتهُ سأفعل ذلك وفعلتُ ذلك فيما بعد.

وبعدها بدأتُ أفكر كيف سأهرب؟ من عادل ومرافقيه غداً ان فكروا بالإنتقام مني فذهبتُ لأمي وقلتُ لها:

- إنهُ يوجد صَبي توعد لي بإنه سيضربني اذا لم أعطيه طعاماً أو نقوداً فأصرتُ ان تأتي معي وفعلاً في الصباح جاءتْ أمي معي وأوصتْ المديرة ست منال عليَّ وكانتْ طويلة بيضاء، وبدينة وأجمل مافيها ابتسامتها التي لم أراها إلا عند مجيء أمي أو أبي، ومَن يراها يظن بأنها لاتعرف آلية التبسم لشدة انضباطها اليومي معنا !

فأرسلتُ على عادل وجاء مرعوباً منها وطلبتُ منه أن يهتم بي لكونهُ أقدم مني في المدرسة، بذكاءٍ تعاملتُ مديرتي مع الموقف وطلبتُ منه أن يُقبل رأسي وفعل ذلك وتفجرتُ خجلاً ولكن كنتُ أكابر وعندما خرجنا من مكتب المديرة قلتُ لهُ:

- آسفة لأني ضربتكَ أمس، لكن رسوماتي أعتز بها اما اليوم جلبتُ لكَ طعاماً واعطيتهُ ما أعدتهُ أمي لي فأخذهُ مني وكان سعيداً ونادى رفاقهُ، واقتسموا الطعام.

فتقطع قلبي على حالهم ورغبتُ أن أساعدهم بملء الفضاء وعندما عدتُ للمنزل طلبتُ من أمي أن تضع لي طعاماً أكثر فلمحتُ الدهشة في عينيها لأنها تعلم بأني لا أطيقُ الطعام خارج البيت ولكن لطيبة قلبها وافقتْ وقالتْ:

- حسناً وقبّلتني رغم انها تعلم بأني اكذب عليها.

وجاء الغد ومنحتهم الطعام ومصروفي اليومي وبعدها قرأنا معاً كنت أعينهم بما يجدوه صعباً وطلبتُ من عادل أن يهتموا بنظافتهم واعطيته ماإدخرته من نقود طيلة الثلاث سنوات الماضية لكي يشتري له ملابساً جديدة.

وطلبتُ منه أن يخبر رفاقه ألا يؤذوا احداً وإلا سأترك صحبتهم، ووافقوا وكُنا ندافع عن أي تلميذ أو تلميذة ان اذاهم أحد التلاميذ وقلتُ له:

- عليكَ أن تعمل في العُطل، وعليك الإهتمام في الدراسة لكي تؤسس لمستقبلك.

وكنتُ سعيدةً لأني نجحتُ بتغييره هو ورفاقه

وأعتاد أن يقول لي: أنتَ أخي وليس أختي!

لطالما كنتُ أخالف زي الإناث وأرتدي زي الذكور بعذر درس الرياضة الذي لم آلفه، وكانتْ المديرة وبقية الهيئة التدريسية يسمحوا لي بذلك دون توبيخي لكونهُنَّ معجبات بمستواي العلمي .

وفي أحد الأيـام وكنـتُ في الصـف الخـامس الإبتـدائي، في الحصـة الأولى لـدرس اللغـة الإنكليزيـة دخـل صـبي الى الصف من دون استئذان، والصَّبي كـان طـويلاً وبمنتهـى الجمال ، ناصع البياض، عيناه الخضـراوان، وشـعره الأشـقر منسابا على خده الأيسـر، تسـلل و جلـس قربـي في الرحلـة الأولى، وكـان زملائـي وزميلاتـي يحبـوني، وكـانوا يقدرون رغبتي في أن أجلس وحدي فإستغربتُ منهُ وقلتُ لهُ:

- لماذا جلستَ هنا؟

فتبسمَ وبكل ثقة أجابني:

- كما يحلو لي .

- لاتثرثر وغير مقعدك فوراً .

وفجأة وجدتُ نفسي واقفة وأقول ذلك بصوتٍ عالٍ.

صرختْ المعلمة عليّ وقالتْ:

- مادهاكِ ياباغاتل؟ مع مَن تتكلمين؟ مَن يقـوم وانـتِ جالسة وحدكِ؟

فبدأوا بالضحكِ فتصببتُ عرقاً خجلاً منهم، جلستُ بصـمتٍ مع ابتسامة إعتلاها الفشل.

وبدأ هو يتكلم وقال:

- أنا اِسمي وسام تميم ولدتُ في يونيو ١٩٨١ في تكساس أمريكا، وجئنا لبيروت منذ السنين الأولى من عمري حيث مسقط رأس والدي وكنتُ ادرس بهذه المدرسة وكنتُ أجلس هنا، وفي أحد الأيام وأنا خارج من باب المدرسة وكنتُ ملتفتاً لصديقي مهيمن لأهمّ بهِ ليسرع فدهستني سيارةٌ وكان اسم مدرستنا (العروبة) آخر مارأتْ عينيّ.

كنتُ منصتة لهُ رغم ذعري الذي يعتصرني .

وكان يُرافقتي الى البيت أحيانا يشكو لي همومه أو يخبرني بطموحه لو لم يكن ميتاً و اِعتدتُ عليه لدرجة عرفتُ كل تفاصيل حياته حتى طلب مني مرة أن أذهب لشقتهم والتي كانتْ في الطابق الخامس في المبنى القريب من بيتنا كما وصفها لي، على بُعد شارع لا أكثر، وفي أحد الأيام تجرأتُ وذهبتُ لشقتهم، وعندما وصلتُ الى بابهم رغبتُ أن أضغط على الجرس فلم أتمكن، فقررتُ أن أدق الباب وكنتُ كل ما أشرع على دق الباب خوفي يمنعني وبعد مضي دقائق فوجئتُ بفتح الباب، ورأيتُ سيدة جميلة يعتصرها الألم، مرتدية اللون الأسود، تبادلنا التحية وقالتْ:

- تفضلي عزيزتي ماذا تريدين؟

- فإرتبكتُ وقلتُ لها: كأس ماء . فإنني مررتُ من هنا وشعرت بالعطش.

طلبتْ مني أن أدخل فرفضتُ ؛ ثم ذهبتْ للمطبخ، وجلبتْ لي كأساً من الماء، شربتهُ، وكنتُ أرتعش خوفاً من عمق نظراتها لي، وشكرتها، وودعتها.

وأنا على بابها رغبتُ لو أفصح لها بأن ابنها وسام رغم عناده معها كان يحبها ويرجو سماحها ؛ إلا اني لم أتمكن من قول ذلك ثم عدتُ للبيت بخطواتٍ بائسة.

وبعدها عرف وسام بذهابي الى أمه وشكرني .

- قال لي: لو لم أكن ميتاً لأكملتُ عمري معكِ.. فأنتِ فعلاً هدية الرَّب كمعنى اسمكِ.

وكنتُ أرى في عينيه اعجاب تخطى اللغات!

وفي يوم الثلاثاء ١٦ من نوفمبر ١٩٩٣ وصلنا نبأ تدهور الوضع الصحي لجدتي سناء التي كانتْ تشكو من مرض السّرطان، وكُنا نعلم بذلك، وأمي عانتْ معها لمدة سنة تقريباً، حيث إعتادتْ أمي كلّ فترةٍ تذهب لرعايتها وأحياناً أخرى تجبرها لتأتي الى منزلنا في بيروت وكانتْ جدتي بلسماً للجميع بالإضافة الى ذلك امتازتْ بحضورها القوي، وكان شعرها كالحرير فضي وقصير، كنتُ أحب كل تفاصيلها رغم معرفتي بأنها تحب سالي أكثر مني وكنتُ متفهمة جداً لذلك الأمر لأني أردّد مع نفسي لا

عليكِ هم يحبونكِ ايضا وسالي تستحق الحُب من الجميع هكذا كنتُ أفكر منذ الصغر.

عندما وصلنا خبر التدهور الصحي لجدتي قررنا الذهاب الى صيدا، وقرب بيتها شاهدتُ بعض أقاربنا والمسعفين يحملوها لسيارة الإسعاف، وكان بعض المارة وجيرانها ينظرون لها بعين الرأفة، شاركتهم الحزن ولكن حيائي منعني من أن أقترب منها أو أقبّلها كأختي سالي ثم ذهبتْ أمي معها للمستشفى.

وبقينا أنا وسالي وأبي في منزلها مع كنتها منى زوجة خالي فراس، والعجوز المرحة زوجة حماها التي كانتْ هناك كزائرةٍ، وجلستُ على سرير جدتي وبعد ساعتين، دخلتْ علينا وكان ذلك في الساعة التاسعة مساءً فقمتُ، وقلتُ لها: الحمد للّه على السلامة ياجدتي.

فضحكَ الجميع عليَّ وقالوا:

- ها!! مع مَن تتكلمين؟

فشعرتُ بأن روحي قسِمتْ آنذاك، وأدركتُ انها ماتتْ جلستُ أبكي حاضنة حجابها، كانتْ ليلة من أصعب ليالي الشتاء، وبعد نصف ساعة جاءَ السائق ليخبرنا بوفاة جدتي، حينها أعتلى الصراخ والبكاء.

وفي الساعة ١١ ليلاً جاءتْ أمي من المستشفى وكانتْ بحالٍ اِعتصر قلبي حزناً عليها، وقالتْ:

- إصعدي للدور الثاني ونامي قرب الصغار.

لم أرغب أن أعاندها، وصعدتُ وأنا في حالة ذعر وكُلّي أسىً، دخلتُ الغرفة، وجدتُ طفلتي خالي فراس سجى وضحى غارقتين في النوم، أستلقيتُ على السرير قربهنّ، وتأملتُ بما يجري وفجأة دخلتْ جدتي الغرفة وجلستْ قربي وحضنتني وقالتْ لي:

- نامي يا حبيبتي .

في الحقيقة لم أقاوم كثيراً سحرها وعبق مسكها وانتشرت موجة الإسترخاء في أنسجة جسدي، ونمتُ رغم اني كنتُ متأكدة بأنّ عينيّ لن تُغمضَ، واستيقظتُ صباح اليوم التالي ولم أجد جدتي، وكان ينتابني إحساس بالغثيان حتى ساعات الظهيرة.

حضرتْ مراسيم العزاء الذي تخلله الكثير من اللغط كنتُ بحالة تخبط بين حضور وغياب وحينها رأيتُ التابوت وفيه كانتْ جدتي مستلقية، مبتسمة قبّلتُ خدها الأيمن كان بارداً كبرود وداعي لها، كان يوماً لايُنسى فقدتُ رغبة الطعام وكل شيء، ذهبتُ باكية الى غرفتها لأصلي وأدعو لها.

عزفتُ عن الذهاب للمدرسة لثلاثة أيام ثم عدتُ يوم السبت الى بيروت لإكمال دراستي ومررتُ بشعورٍ لم أفكر به سابقاً ألا وهو رحيل الأحبة مع العلم انها كانتْ تزرني فما بال من لم تزرهُ ؟

حاولوا زميلاتي وزملائي مواساتي وتظاهرتُ بالكبرياء ومرتْ الأيام والشهور وانقضتْ مرحلة الدراسة الإبتدائية واختتمتها بالتفوق كالمعتاد.

وفي تلك الفترة لم تزل أصداء ذعري حتى كنتُ أتحدث مع نفسي بصوتٍ عالٍ، وكانت مراقبة عائلتي لي يثير رعبي ومخاوفي، وفي نفس الوقت رأيتُ معهم نهج الحياة، معجم الفاظ، إشارات، نظاماً كاملاً من الرموز على حد قول علماء الإجتماع، وكان أفراد عائلتي يشجعوني على الحفاظ على علاقة فاعلة مع العالم ومرتْ هذه فترة الإفتتان الأولية من عمري، وبردتْ جذوة إنفعالي على مَن حولي.

******

الفصل الثاني

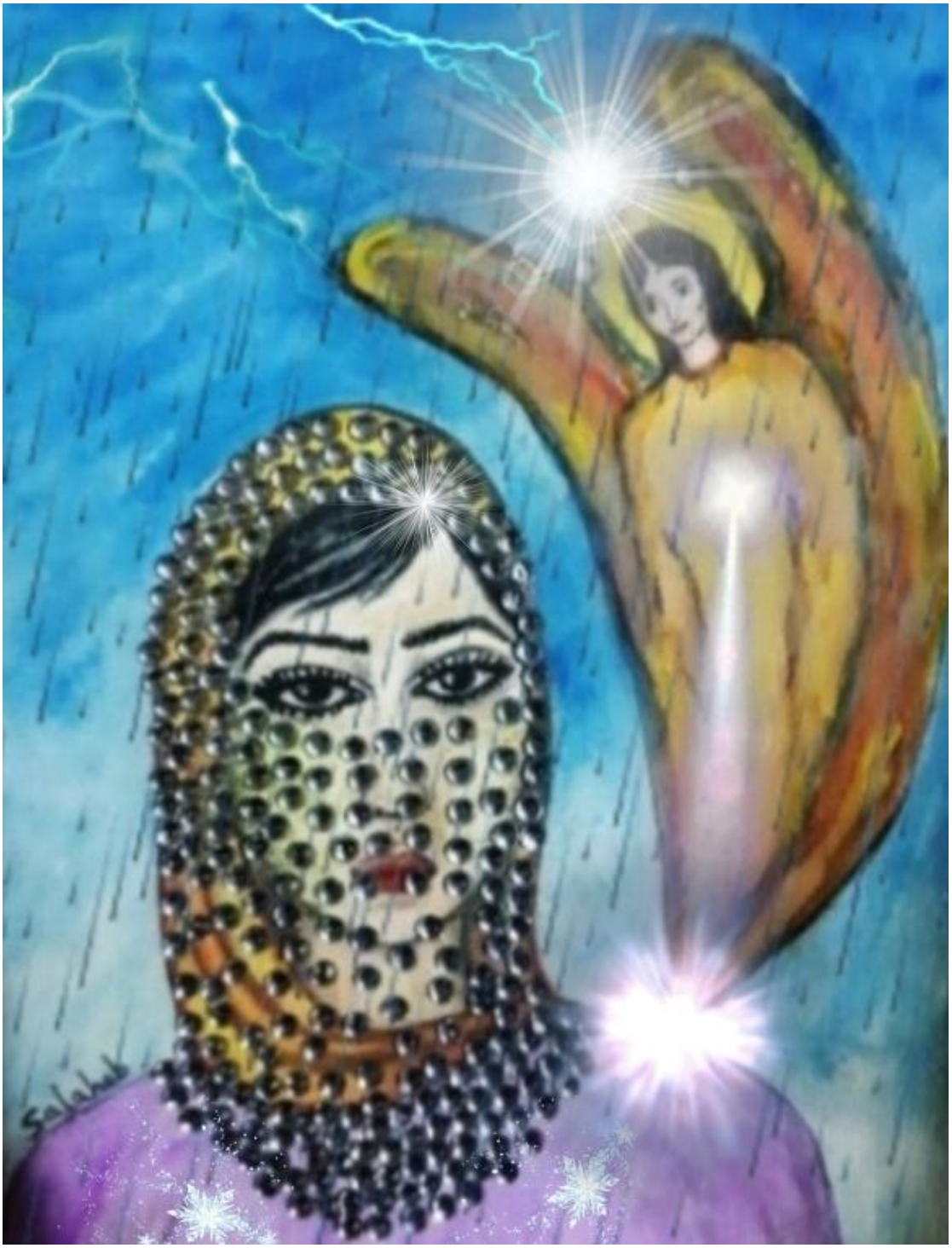

الحقيقة البسيطة والأساسية، أحسستُ بشيءٍ ينهار في داخلي كشجرة الكالبتوز التي كانت جدتي تستظل تحتها حتى ماتت في ظلها، كنتُ في أيام العُطل أعاني عندما كانوا يخرجون أهلي من البيت، وأبقى وحيدة، كان يتهافتُ الأموات عليّ، وكُلي آذانٍ صاغية لهم، وكنتُ أعيش مآسيهم أفراحهم وأحزانهم .

وكانتْ غالباً ماتبدو عليَّ ملامح الشرود والاِنفصال عن الواقع الذي انتمي إليه.

كُلما كان يدخل أبي لغرفتي ، يثير الرعب في داخلي فأصرخ بحدةٍ بسبب وجودهُ المفاجئ، وكان يستغرب من ردة فعلي العنيفة وتكرر هذا الموقف مع أمي وأختي أيضاً وكنتُ أشعر بخجلٍ لايوصف وخاصة عندما يقولون لماذا هكذا تخافين؟ كنتُ أصمتُ لا أقوى على جوابهم بأني كنتُ أنصتُ لغيركم ودخولكم المفاجئ أرعبني.

ومرتْ الأيام والشهور ودخلتُ مرحلة المراهقة التي تزامنت مع الدراسة المتوسطة التي لم تكن كما كنتُ أسمع عنها من باقي زميلاتي، فلم أهتم بصَبي يقف أمام الثانوية أو أفكر بما يقولهُ معجب عابر في طريقي؛ لم أكُن أحمل مشاعر الأنثى ولا حتى الذكر !كنتُ بفترة صراعٍ، مع عالمي الماورائي وبحالة اِنسحاب من عائلتي وأقاربي كَيْ لا أقول لهم سهواً ما أخفيه، وكم كانتْ رغبتي في الإفصاح عما

أسمع وأشاهد لطالما كنتُ أغصُ بصرخةٍ أريد أن أكون مثل غيري إلا إني كنتُ أجاهد بسلاحِ الصمت كي لا أبدو ذهانية .

لم نكن نخرج كثيراً لإنشغال أبي بعمله، فقط في عُطله وكنتُ اتخبط بين الشيء واللاشيء إلا إني كنتُ ماهرةً بإخفاء معاناتي تحرجاً من أن أتهم بالجنون؛ فكانتْ نظرتهم تهمني جداً لذا كنتُ صامدةً بصمتي .

وباشرتُ بإكمال المرحلة الأساسية [٤] وبدأت دراستي في السنة الأولى، وكان كلّ شيءٍ جديد ومختلف حتى طبيعة المواد الدراسية، احتاج دراستها جيداً لكي أنجح فقررتُ أن أبقى متفوقة كما كنتُ في مرحلة الدراسة الإبتدائية، والتزمتُ بتقسيم وقتي، وتمكنتُ من إثباتِ بصمّةٍ لإسمي أمام الهيئة التدريسية، وكنتُ فخورةً بمد يحهم لي، وتعرفتُ على كثير من الزميلات اللاتي لم يرغبنّ صداقتي لكونهُنّ من طبقة مادية أعلى من طبقتي .

---

[٤] التي تتضمن ست سنوات في الإبتدائية وثلاث سنوات في المتوسطة حيث تعد هذه المرحلة المتكونة من تسع سنوات في لبنان الزامية.

ولكني تمكنتُ من معرفة فتاة طيبة القلب وصادقة كان اسمها نور، لمحتُ فيها جزء من انطوائي، اقتربتُ منها و نجحنا بإقامة علاقة نبيلة وقوية وكان تعارفنا بعد عيد الميلاد المجيد في عام ١٩٩٦بيومين.

وكُنا نسخر من المتطرفين من مذهبي الشيعي أو مذهبها السّني كُنا على إتفاقٍ دائم ونعيش في سلام.

وتمكنا من اجتياز أول مرحلة بكلّ حُبٍ و تفانٍ.

وفي العطلة سمعتُ بأن عمي مهدي سيرجع من العراق حيث كان يعيش هنالك منذ ١٩٨٠، وكان يمر بأزمة نفسية حادة منذ ١٩٩١، وكانتْ أزمته بسبب رحيل زوجته سعاد وابنهما عمار، حيث سقط صاروخاً على منزلهم في الأعظمية في بغداد، ولم ينجو منهم احداً سوى عمي وابنته ملاك، فقد شهد عمي هنالك حرب ايران والعراق وحرب أم المعارك [٥].

---

[٥] أطلق عليها عسكريا أيضا اسم عملية درع الصحراء (للمرحلة من ٢ أغسطس ١٩٩٠ وحتى ١٧ يناير ١٩٩١) وثم عملية عاصفة الصحراء (للمرحلة من ١٧ يناير إلى ٢٨ فبراير ١٩٩١)، وشنتْ هذه الحرب من قوات التحالف المكونة من ٣٤ دولة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق بعد أخذ الإذن من الأمم المتحدة لتحرير الكويت.

فعانى عمي ماعاناه، ولذلك قرر أن يبيع منزله ومطعمه هنالك ليعود الى دياره من جديد.

سكن بالقرب منا، حيث كان الأخ الأصغر المقرب لأبي وكُنا نذهب لهم يومياً كلّ مساءٍ، وأحببتُ ابنتهُ ملاك التي تصغرني بخمسِ سنوات، وكانتْ كالملاك عيناها ناعستين، وشعرها الأشقر القصير، كنتُ أنظر لها وكأنها دُمية، علمتها الرسم وكانتْ تلهو معي وتعلقتْ بي لدرجة انها تجبر والدها على المجيء لنا اذا لم نذهب لهم، وبدأتْ تحكي لي ماتتمناه أما سالي فكانتْ بعيدة عنا فميولها الطبخ وأعمال المنزل، وفي أحد الأيام رغبتُ أن أحكي لملاك عن وسام ولكني قلتُ لها زميلي وأخفيتُ عنها أمر موته، كانتْ تحفظ اسراري وبادلتها بالمثل.

وبدأتْ المرحلة الثانية من دراسة المتوسطة ، وكانتْ كسابقتها من حيث دراستي وبقيتُ متمسكة بصديقتي نور وبعد مضي شهرين من الدوام في ١٢ نوفمبر ١٩٩٦ توفى جدي حسين أثر نوبة قلبية، حيث كان جدي يتصف بالكرم ، وفعل الخيرعلى نحوٍ غير مألوفٍ؛ فذهبنا بسرعة الى بيته الواقع في مدينة النبطية [٦]، وكل ما أذكره عن جدي إنه سخي، وكان يحبنا جميعاً دون تمييز كما كان يحب الحياة وصاحب حضور قوي يألفه الغريب والقريب، وكنتُ فخورةً بهِ، وأكن لهُ كلّ الإحترام.

وهنالك مكثنا أنا وعائلتي ثلاثة أيام وكانت ملاك معنا وكان ذلك الحدث صدمة شديدة لأبي، كما حزن الجميع لفراق مَن كان يجمعهم بحضرته، أما أنا عندما دخلتُ الى البيت وجدتُ جدي واقفا ساكنا، وجدتُ دهشة الموت على وجهه الباسم، وقفتُ أمامه والكلمات تتلاشى مني .

كلّ ماقلته:

- سنذكركَ دوما ياجدي.

ووجدتُ عمي الأكبر ياسين أبو باقر منهاراً باكيا جالسا على الأرض لرحيل أبيه اقتربتُ منهُ، وقلتُ لهُ :

- أذكر اللّه ..لاتحزن ياعمي فالحياة قصيرة ومصيرنا سنلحق به وسنراه، فهزّ برأسه دون أن يرفعه نحوي.

حزنتُ على رحيل جدي الذي لم أشبع من وجوده لكوننا في غير مدينة، وكذلك حزنتُ على أبي وخاصة عندما رأيته مرتدياً عباءة جدي فلمستُ الإنتماء وأدركتُ ان مَن أنجب ولداً لم تمتْ مقتنياته معه إن مات.

---

(٦)تقع في جنوب لبنان والتي تبعد مايقارب ٦٥ كم عن مركز بيروت حيث أكثر سكان المدينة مسلمون اثنا عشرية يحبون أهل بيت رسولنا الكريم بشدة.

وعُدنا الى البيت ولدراسة، وأول مابدأ أبي يتعافى من ألم صدمته لرحيل جدي، وبعد فترة لاتتجاوز ثلاثة شهور فوجعنا بنبأ وفاةِ جدتي فاطمة التي لطالما كانتْ ودودة مع الجميع ورحيلها كان الأقسى بالنسبة لأبي لكونها قريبة من روحهُ أكثر حيث كان ينظر لها الأم المضحية، الصبورة، والمرأة المثالية في كلّ تفاصيلها .

وعندما ذهبنا الى منزل جدي، وجدتها واقفة قرب الباب تهمس لي تعالي وتشير بيدها لكي تحضنني اقتربتُ منها قبّلتني وقالتْ :

- إهتمي بأبيكِ ..علي أغلى ما أملك .
- فقلتُ لها: مؤكد ياجدتي فانا أحب أبي جداً .

وبعد انتهاء العزاء عُدنا للبيت وكُنا نضج حزناً لرحيل مَن نحب، مرتْ علينا ايام خالية من الحياة ليس سهلاً أن نتأقلم على فراق مَن اعتدنا على رؤيته، وإن كان اللقاء به قليلاً ولكن يكفي شعورنا أنه بخير وعلى قيد الحياة وإن كان بعيداً، بينما الآن كيف لنا أن نكن بخير ولدينا اعزاء تحت التراب دون رجعة؟

أنكتفي بالذهاب لقبورهم؟ و نحدثهم بقلوبنا حياءً ممَن حولنا كي لايتهمونا بالجنون.

بطبيعة حال الناس يتناسون مآسيهم كي يعيشوا مابقى من عمرهم، وهذا ماحدث فعلاً بالرغم من كلّ الضغوط النفسية التي تعرض لها أبي في تلك الفترة إلا إنهُ ثابر في عملهُ، وتفانى في تنفيذِ طلباتنا التي تكاد لاتنتهي وكان همهُ الوحيد أن نكون أنا وأختي على أفضل حال وألانشعر بالحرمان، و نجح فعلاً فكان أبي الأب المثالي، الذي لطالما عندما يدخل للبيت يُقبّل الجميع والبسمة لاتفارق وجهه الجميل.

أما أمي التي مازالت تعاني من رحيل أمها حيث كانتْ كلما تذكرها تبكي، ورغم ذلك كانتْ أمي تعمل المستحيل لكي تسعدنا في التوفير من الراتب الشهري لأبي لكي تشتري لنا ملابس العيد أو الزي المدرسي، والمستلزمات المدرسية، بالإضافة لذلك كانتْ منشغلة في ادارة أعمال البيت كإعداد الطعام، والتنظيف من دون ان تطلب أي مساعدة مني أو من أختي فكانتْ حريصة على دراستنا اكثر منا.

وفي أيام العُطلة كنا نحاول أن نساعدها في اداء بعض المهام البسيطة ومع مرور تلك الأحداث أقتربتْ منا ملاك أكثر وأكثر وكنتُ سعيدة بها ومعها.

شيئاً فشيئاً بدأتُ اشعر بالإنتماء لعائلتي، وبدأتُ أهتم بما يرضيهم، لذا قررتُ أن أهتم بدراستي لعلّي أنجح برسمِ

البسمة على وجوههم، وبعد اتمام السنة الثانية في هذه المرحلة الدراسية وبنجاح باهر عندها اتممتُ الرابعة عشر من عمري وفي تلك الفترة أختفى وسام من حياتي، وكنتُ اسأل عنه نفسي وبصمتٍ لكن دون مجيب.

هكذا اعتدتُ على الوداع فجأة، وقررتُ أن أتناساه وإن كانتْ محاولة النسيان تُعد بحد ذاتها ذكرى.

وبعد مدة قررتُ أن أجد لي صديقا لايرحل فإخترتُ البحر حيث كنتُ اشعر براحةٍ نفسية كلما أنظر إليه لأنه الوحيد الذي احكي له أسراري بصدق، وكان أبي كثيراً مايأخذنا في عُطله الى الكورنيش حيث كان ينتظرني البحر لأروي لهُ حكاية جديدة، وكنتُ مطمئنة من انتظاره لي .

كنتُ في فترة المراهقة ملتزمة بالصلاة إلا اني كنتُ مُستخفة بالحجابِ بل كُنتُ أكرهه لدرجة أكرهُ الذهاب لبيت جدي حسين في مدينة النبطية لأن عمي ياسين وأولاده وزوجته كانوا يقدسون الحجاب، وكنتُ غالبا ما أدخل بنقاشٍ حاد كلما اذهب اليهم من حيث أن العبادة سمو روحاني لا يقتصر على المظهر وحسب، وكان كلّ منا معتز برأيه، والحق معه والآخر على باطل، هكذا كان ختام نقاشنا، وكنتُ اعدهم متى ما أقتنع بالحجاب سأرتديه، وكنتُ أظن بداخلي أني اكذب عليهم لأن هذا اليوم لن يأتي فالعبادة أساسها جوهر لا مظهر وان كان المظهر مطلوباً.

أما بالنسبة لأبي لم يجبرنا أنا أو سالي على فعل شيء لانرغبه فما كان عليه هو تقديم النصيحة ويترك القرار لنا هكذا هو كان سامياً عن الدكتاتورية.

اما الهامسون لم يمر ليلاً إلا وكان أحداً يزُرني ومِن ضمنهم كانتْ جدتي سناء تزُرني، وكنتُ أشتاق لها جداً وأحياناً أدعو بعد الصلاة أن تزُرني وفي أحد الليالي زارتني وقبّلتها وطلبتُ منها أن تخبرني مامعنى أسمي الذي اختارتهُ لي قبل ولادتي ؟

فقالتْ:

- راودني حلماً ذات ليلة، وكنتُ وحيدة على تل الكافيتيوس [٧] في أثينا، وكان الجو ممطراً، وكان الوقتُ فجراً، وسمعتُ أذاناً ولم يكن قربي سوى كنيسةٍ وكانتْ مجموعة من الذئاب تحيط بي، والرعب قيدني من الحركة الى أن لمحتُ سيدة مرتدية ملابس الفرسان وكان بيدها اليمنى سيفاً بارقاً، وشعرها الأسود الطويل بللته زخات المطر وعينيها السوداوين الكبيرتين تكاد لاترمش !

---

[٧] تل متكون من الحجر الجيري الطباشيري، ويعتبر ثاني أشهر مكان أثري في أثينا بعد الاكروبولس في اليونان، يصل ارتفاعه إلى نحو ٣٠٠مترفوق مستوى سطح البحر، ويمتاز بوفرة اشجار الصنوبر، يظهر في المساء وكأنه شكل دائري مضيء، وبالنهار يظهر على أنه تل أبيض وأخضر تعتليه كنيسة أجيوس غيريغورس البيضاء، وذكر هذا التل في العديد من الأساطير التي تشير اليه بإعتباره ملجأ سابق للذئاب.

ولاحظتْ الذئاب في لحظة وقوفها لاذوا بالفرار.

يا إلهي! أندهشتْ وسألتها:

- مَن أنتِ ؟
- أنا باغاتل.. مقاتلة لأجل السلام .
- مامعنى إسمكِ؟
- هديّة الرّب.

كانتْ مذهلة في كلّ تفاصيلها.

- ثم قالتْ وهي تبتعد بخطواتها عني : سترزقين بحفيدةٍ قريباً وستحمل رسالتي ثم إختفتْ.

لذا قررتْ أن تحملي اسمها رغم ندرتهُ وغرابته

فشكرتْ جدتي لأنها اجابتني عن سؤالٍ طويلاً ما راودني وقررتْ أن أحب أسمي لأنهُ لسيدة خدمتْ الإنسانية وإن كانتْ فقط بالأساطير اليونانية، ولعلّي أنجح بخدمة البعض وأتجلى عن حُب الأنا .

أعتدتْ أن أسهر الليالي بسبب أصوات من حولي فأصبحتْ زيارة الأموات الهامسين لي بشكلٍ يومي، منهم مَن كانَ يبكي وهو يسرد لي قصته في حياته ومنهم مَن كانَ سعيداً بسرد تفاصيل حياته .

وفي الخامسة عشر من عُمري بدأتُ أتمكن من التخاطر مع زميلاتي أو أقاربي وكنتُ أتمكن من معرفة مابداخلهم تجاهي أو معرفة ما يحتاجوه مني وكنتُ أسعى لتلبية حاجات بعض زميلاتي.

أما عالمي الآخر كل ماعلمتهُ عنهم أنهم يعلمون اِسمي وينادوني به لحظة وصولهم لي؛ منهم مَن كان يجيد اللغة العربية ومنهم مِن يأتي ويذهب ولاأفهم منهُ شيئاً لجهلي بباقي اللغات وكل رغبتهم كانتْ أن أنصتُ لهم وحسب.

اِنتهت مرحلة المتوسطة في يونيو ١٩٩٧ وكنتُ متفوقة علمياً إلا اني قررتُ أن تركَ الدراسة أو على الأقل لا أدرس المرحلة الثانوية بعذر الدراسة أتعبتني وأنا أخشى صعوبة المواد الدراسية القادمة .

وآنذاك كان لأختي سالي دور فعال بأن أغير رأيي وأخذتْ ترفع من معنوياتي لكونها تكبرني سناً وتعلم مدى صعوبة المواد الدراسية، قالتْ لي وبكلِّ ثقة :

- أنكِ ستتفوقين و يجب أن تتخلصي من ترددكِ وبأقرب وقت.

لم أتمكن من الرد عليها وإكتفيتُ بالصمت.

تمكنتْ سالي من اِقناعي وبنجاحٍ، وافقتُ على أن أكمل دراستي لعلي لا أخيب رجاء عائلتي، ولكني عشتُ أصعب مرحلة من ١٩٩٧ الى ٢٠٠٠ حيث أن حالتي النفسية زادتْ سوءاً وتركيزي بدأ يتسرب مني؛ فكنتُ في أوقاتٍ أفقد الرغبة في الحياة وأوقاتٍ أخرى سعيدة أضج تفاؤلاً.

كنتُ أمر بتفاوتٍ رهيبٍ في الموازنة في اِعتدال مزاجي الذي كان ينعكس على سُلوكي.

كنتُ اِنعزالية إلى حدٍ ما عن باقي زميلاتي لأني عندما أتخاطر معهنَّ كنتُ أجد فيهنَّ حقداً لي وبدون سبب وأختبرتُ الكثيراتِ ولحُسن الحظ وجدتُ نور كزميلةٍ طيبة لم تتغير طوال تلك السنوات .

و كانتْ نور تروي لي حكايات عن عائلتها وعما تمر بهِ من مواقف كنتُ سعيدة معها وبصداقتها.

ورغم كلّ شيءٍ جديد أحببته مع نور إلا اني لم أكن جريئة لكي أفصح لها عن سري، حاولتُ أكثر من مرة ولكن لم ألتمسْ منها الجدية الكافية لإستيعاب وضعي المربك لذا لم أكلمها عن خفاياي خوفاً من أن تتركني.

واجتزنا السنة الأولى في يونيو ١٩٩٨وكنتُ مُغيبة عن الواقع أكثر من المراحل السابقة وكنتُ أشتكي من أزمات صحية عنيفة كاضطراب في قلبي أو ضغط الدم.

حيث كنتُ عندما أكون بمفردي أشعر بمَن يضربني فجأة ويختفي حتى لاأتمكن من رؤيته، وكنتُ أهرب من الغرفة كي أستمد قوة ممن حولي ..تكررتْ هذه الحالة وأصعب ماكنتُ أعانيه ليلاً حتى الأموات مَن يزورني عندما أسأله عما أتعرض لهُ كان يصمتْ ويقول حيثما يكون الصالح يوجد الطالح .

وذات مرة زارتني في المنام جدتي سناء، وسألتها عما أتعرض له وقالت لي : لاتخافي المسيء من الجن الذين يبغضوكِ ويضربوكِ فقط إهمليهم وأكثري من قراءة القرآن الكريم وآمني بلله فهو لن يخذلكِ وأخذتْ تكرر الكلمات الأخيرة الى أن استيقظتْ وكأنها قربي وليستْ في المنام!

بدأتُ أسترجع ذاكرتي لسن الرابعة من عُمري وتذكرتُ الرجل الطويل ناصور حينما ركلني بقدمه على وجهي وكان مستضعفاً قوايّ ، وبدأتُ أفكر ماسر حقده لي وبدأتُ أستذكر مخلوقاتٍ طائر برأس انسان أو كلب برأس أفعى كنتُ أراها ليلاً حينما اتجول في منزل جدتي، كانتْ تلك المخلوقات تسخر مني، وأحيانًا يشدونِي من شعري .

وتذكرتُ أيضاً حينما كنتُ أمرض، أهلي حولي والهامسون يبكون عليّ وكأنهم يودعون أنيسهم.

وكنتُ ألمح مَن يُصفق وهو طائراً ومنهم مَن يضحك وانا أتأوه من حدة الصداع، ومنهم مَن يقف على رأسي كجن أزرق ويقول ساخراً :

- لماذا أنتِ نائمة؟

أدركتُ بأنهم كانوا معي ولكني كنتُ أتجاهلهم كي لا ينالوا مني ولايثيروا ذعري.

لذا قلتُ مع نفسي لابد من أن أصمد وأن أتجاهل كل مَن يحاول ايذائي، وأعتبرهم مجرد هلوسات فكرية لاوجود لهم وكنتُ أتسلح بالقرآن .

كان عام ١٩٩٩ ليس بسهلٍ مروره فكانتْ لياليه طويلة، وكنتُ حينها في السنة الثانية من الدراسة الثانوية حيث اخترتُ الفرع العلمي وكنتُ أقرأ كثيراً، ولكن دون تركيز فأفكاري كانتْ مشتتة وتركيزي هارباً.

ومع كلّ ماعانيتُ من ظروف تمكنتُ من النجاح وبمعدل متوسط ولم يسعدني ذلك الأمر ولكن اخذتُ عبرةً وهي يجب عليّ أن استحضر كل ارادتي وقدرتي كي اتهيء للسنة القادمة حيث قررتُ آخذ مسار العلوم العامة.

وفي مطلع عام ٢٠٠٠ بدأتْ تتجلى فراستي في معرفة مَن حولي، وفي تلك الفترة أختي سالي كانتْ في ثالث مرحلة جامعية كلية اللغات فرع اللغة الفرنسية، رغبتُ أن أذهب

معها يوما لكي أتعرف على الحياة الجامعية، ولكني ترددتُ ولم اذهبْ، أما سالي فكانتْ إجتماعية وسعيدة جداً مع زميلاتها وزملائها واعلنتْ لي بأنها لن تتزوج احداً من زملائها الراغبين الزواج منها لأنها تحب باقر إبن عمنا، الذي كان من سنها، ويدرس الطب، ويبادلها بنفس المشاعر، ولكن أمي كانتْ تؤجل موضوع إرتباطهما لأنها لاترغب أن تغادرنا سالي وتذهب لمدينة النبطية حيث يعيش باقر.

وفي أحدى الليالي جلستُ أمام المرآة أحاكي نفسي هل سأجد مَن يناسبني ؟ فقررتُ أن أكتب الصفات المشروطة الإفتراضية لفارس أحلامي فكتبتُ مايقارب أربعين شرطاً، وكان معظمها يطابق ذاتي وكأني أنتظر باغاتل على هيئة رجل لكي أتزوج! وحينها أوقنتُ أكثر بأني لن أرى رجلاً يمكنني أن أحبهُ حقا.

ومع ذلك رغبتُ أن أعجل في رؤية مستقبلي وبدأتُ اسأل نفسي كيف أتمكن من فعل ذلك ؟

وكنتُ أمشي في غرفتي يميناً وشمالاً الى أن تذكرتُ بأني ذات مرة قرأتُ في كتيب الدعاء المستجاب مَن توضأ وقرأ آخر خمس آيات من سورة الكهف سيتمكن في منامه من رؤية مايرغب بمشيئة الله .

فقلتُ في سري لماذا لا أفعلها لأشاهد مَن سأتزوج وماهو مستقبلي ؟

ونفذتها فوجدتُ نفسي وكان الجو ممطراً قرب مجموعة ناس جرحى، وقربهم شاب وكأني أعرفهُ وقلتُ لهُ:

- ماذا سنفعل الآن يا آدم ؟

قبّل جبهتي وقال: أنا سأذهب بدلاً عنكِ؛ فأنفجرتُ بالبكاء مُحاولة أن امنعهُ وكأنه سيموت إن ذهب!.

وحينها اِستيقظتُ مرعوبة وندمتُ على القيام بذلك، وبعد ساعات من اِستيقاظي سخرتُ من نفسي كيف أفكر بهذهِ الطريقة؟

وكان ذلك تزامناً مع نهاية دراستي في الثانوية وكنتُ حاصلة على معدلٍ مايقارب التسعون إلا اني قررتُ أن أدخل كلية الحقوق/جامعة بيروت.

كان شعور النجاح يسعدني، وكنتُ أحتفل به في قلبي ومع مَن حولي بالرغم ذلك القلق المبهم الذي يحاصرني والشرود والضياع الكامن فيهما وأبادل الجميع بإبتسامة فيها الوجَل والتردّد.

وفي تلك الفترة عانيتُ من توترٍعصبي وأرق، بعدما تضخمتْ أصوات الليل الخافتة وأصبحتْ واضحة وجلية، حيث كنتُ أحملق في الظلام وأتقلب في فراشي اتململ وأنفخ محاولة أطرد كل شيء من ذهني ومن حولي لأنام.

وكنتُ أرفع رأسي عن الوسادة بملل وأقطب جبيني لأرى مَن في الغرفة معي لأبعد إحساسي بالضعف.

وكنتُ أسمع ضحكاتٍ تثير إرباكي، وكنتُ أقول لربَّما الشيطان .

لأن الشياطين لايقولون عن أنفسهم شياطين !.

وكانتْ تتقاذفني إحساسات كثيرة متضاربة تتجلى بأن أصمد فالحياة تستحق المزيد من الأمل، وكنتُ أختم ذلك الصراع بصلاةِ الصُبح وبعدها أنام .

ورغم كل الصراعات النفسية التي مررتُ بها إلا إني أظهرتُ دائماً للعالم وجهاً باسماً وهادئاً، وكنتُ أتصرف بإستمرار كناصحةٍ، وغالباً ماكنتُ قادرةً على الإقناع، وكبح جماح الحماسة العنيفة التي تقود الطرف الآخر الى صعوبات، والتي كنتُ أستشعر بها من خلال الإستناد على الحاسة السادسة (التنبؤ) .

****

الفصل الثالث

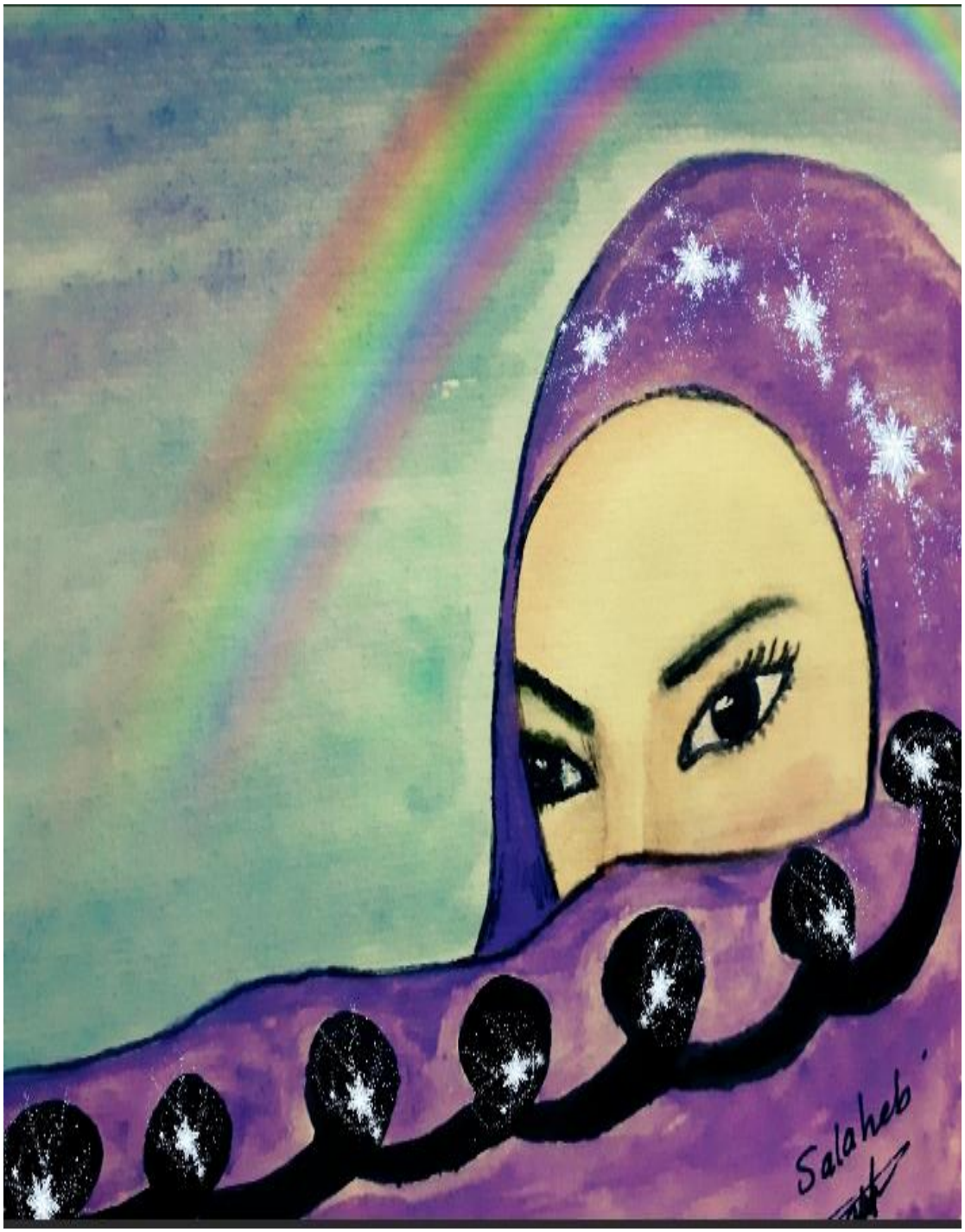
Salaheb

في اكتوبر ٢٠٠١ بدأتُ في الدراسة الجامعية وأنا مرتبكة مترددة، وأعلم أن الخوف المبهم من الجحيم، إنما هو مصدر العُقد النفسية والأمراض العصبية، والتردد هو المسؤول عن الطاقة السلبية، إلا أن حسرتي كانتْ كبيرة لفقدان صديقتي نور حيث أنها اختارتْ كلية الطب.

كنتُ اعاني من حياءٍ مفرط وتلعثم حتى بالسلام على زملائي وزميلاتي، والبعض منهم سخروا من أسمي وبعد مرور اسبوع، قال لي بكر- أحد زملائي:

- سمعتُ بأن معنى اسمكِ هديّة الرّب، ويعود لأصولٍ يونانية.

- نعم.

- كلّ شخصٍ يأخذ من اِسمه شيء إلا أنتِ. فنظرتُ لهُ بدهشة واستفهام!

- أسمكِ يحتاج لدهرٍ كي نتقبله ومعجزةٍ كي نألفه ولم تأخذي منه شيئاً سوى الغرابة.

وحينها ضحك جميع مَن معه ولكني تعاملتُ مع الموقف كأنهُ أمرٌ طبيعيٌّ مع إنه حرق دمي وبشِدّة.

عدتُ بائسة وحزينة، وكأنّي في أولى مراحلي الدراسية من عُمري لم أتقبلْ فكرة الدوام بسهولةٍ كنتُ أهرب من

تجمعاتِ الطلاب، كنتُ أتعمد الحضور للمحاضراتِ متأخرة.

تزاحمتْ الحواجز بيني ومَن حولي، تشبه الأملاح والبحار والنجوم، وبراعم الأشجار تُعجن في داخلي لتكوّن كتلة غامضة تنمو بسرعة، وتختفي فجأة كالعاصفة.

وبعد مرور شهر من الدوام بدأ بعض زملائي يقتربون مني لطلب المحاضرات أما زميلاتي فلم يقتربنَ مني اطلاقاً حاولتُ أن أقترب لِإحداهُنّ، وكانتْ تدعى مريم فوجدتُ جفاءً منها، لذا حافظتُ على كرامتي منعاً من أن تخدش فقررتُ ألا أرحب بأحدٍ إلا اذا هو بدر منهُ رغبة التقرب مني زميلات و زملاء على حدٍ سواء.

كنتُ أعتاد على التخاطر مع مَن حولي حتى مع الكادر التدريسي وكنتُ أحزن لما يعانونَ منهُ من ضيقٍ واعتدتُ على الدعاء لهم بعد الصلاة وبعد مدة كنتُ أجد تقربهم لي وكأنهم شعروا بودّي لهم.

لاحظتُ مختلف الطوائف من المسلمين وباقي الديانات لم اقترب منهم حسب طائفتي بل حسب إنسانيتهم واحترامهم للّه ولعباده .

كنتُ مسالمة مع الجميع وبادلوني بالمثل، واشغل وقتي بالدراسة الى أن تمكنتُ من أجتياز السنة الأولى وبنجاح

وكانتْ أسرتي بمنتهى السعادة حيث اتفقنا ان نعمل حفلة خطوبة سالي وباقر مع مناسبة نجاحي وفعلنا ذلك في مساء الأربعاء ١٢يونيو ٢٠٠٢، وتمت دعوة أقاربنا الذين لم يغتربوا عن أرضنا، وكذلك تمت دعوة جارنا الذي سكن قربنا مؤخراً السيد إدوارد وزوجته السيدة كارولين وتكلل اللقاء بالبهجة والحلوى، وبتبادل الهدايا، ولملاك كان دوراً هاماً في ادارة الحفلة رغم انها كانتْ في مرحلة المتوسطة، إلا ان طبيعة حياتها بعد رحيل والدتها جعلتْ منها إنسانة أكبر من عمرها.

وخلال الحفلة جلس قربي جارنا الطيب السيد إدوارد وما أعرفه عنه، مسيحي، مسالم، وكان معلمٌ متقاعداً، أما زوجته فهي ربة بيت، وكانتْ طباخةً ماهرةً لطالما ترسل لنا مماتُعد من معجناتٍ لذيذةٍ .

وأخبرني عن إبنه الوحيد كان يدرس في العراق في جامعة الموصل والذي حصل على شهادة الماجستير مؤخراً في القانون الجنائي والذي سيباشر بعمله الأكاديمي قريباً في بيروت، وطلب ألا أتردد بطلب المساعدة منه، ثم نظر لأبي وقال بنبرةٍ عالية :

- إن التمعن في الدراسة لإختلاف بعض المناهج مقارنة بمناهج العراق جعلتْ من آدم معقداً..! ثم ضحكوا..

قلتُ مع نفسي ..آدم !!

قلبي تسارعتْ نبضاته حينما سمعتْ بإسمه

ثم سألته:

- مَن آدم ؟
- إبني ياعزيزتي.

فهدّأتْ نفسي وقلتْ إصبري إنّه مجرد تشابه أسماء، وإستبعدتْ أن يكون هو مَن حلمتْ به ؟

وإنتهتْ الحفلة وتناسيتْ الأمر.

وبعد مرور شهرين من خطوبة أختي، لاحظتْ إرتباطاً متنامياً بين سالي وباقر، وعرفتْ منها بأنهُ لم يكن مهتماً بالموسيقى مثلها، وكان أجمل مافي علاقتهم الصّراحة بالإضافة إلى بريقِ حُبهم الصّادق الذي كنتُ أراهُ فيهما.

وإستأجروا شقة قريبة من منزلنا في نفس المبنى الذي كان فيه وسام، وقد أثثتْ وجُهزتْ لهما من قبل عمي أبو باقر وزوجته، و كان لوالديّ دوراً لا يُنسى في تجهيز إبنتهم الكُبرى، وتم الإتفاق بين باقر وسالي بأن يؤجلون موضوع انجاب الأطفال رغم أن رأيهم لم ينل رضا الجميع.

وفي إحدى زيارات باقر لنا، إنتهزتْ فرصة تأخير سالي عليه لأنها تهتم بمظهرها جداً مما تفرض عليه الإنتظار قبل الخروج من البيت، فخرجتْ من غرفتي وإتجهتْ إليه نحو غرفة

الاستقبال في البدء سلمتُ عليه ثم طلبتُ منهُ أن ما سأخبره بهِ يبقى سراً فوافق وبسرور فأخبرته بأن لي زميلة في الكلية وإنها ترى اشخاصاً إلا إنهم أموات، وتعاني من رؤية جن يثيروا مخاوفها ويضربونها أحياناً فهل هي مريضة؟

كنتُ حينها أختصر حالتي النادرة التي أضنتني طيلة السنوات الماضية.

تبسم قائلاً:

- من المؤكد مريضة فهي تعاني من انفصام في الشخصية ولابد أن تراجع ذوي الإختصاص لكي لا تتفاقم حالتها، فقلتُ له :

- بما إنك طالب في مجال الطب، فما هذا المرض ؟

- قال: انفصام الشخصيّة أو ما يُسمّى " الشيزوفرينيا" هو اضطراب قويّ في الدماغ يشوّه الطريقة التي يُفكّر أو يتصرّف بها الشّخص المصاب، وطريقة تعبيره عن نفسه أو تعامله مع المحيطين به وسببه وراثي أو خلل جيني أو نتيجة تعاطي بعض العقاقير، ويتصف المصاب به بتفكك عاطفي وتقلب وجداني ومن الصعب تحليله .

يُعاني المصابون بالفِصام من مُشكلاتٍ إدراكيةٍ واضحةٍ فلا يَستطيعون تقدير الأحجام أو تقدير الوقت أو تمييز الاتجاهات أو الأماكن.

- ماهي اضطراباتهم؟

- يُعانون من نوعين رئيسيين من الاضطرابات وهما:

*انهيار الانتباه الانتقائي: بحيث لا يستطيع المصاب اختيار ما يريد أن يقرأ أو يرى أو يسمع، فينتبه لكل شيء، ويميل بعض الباحثين لعزو معظم الأعراض المرضية للفصام؛ حيث سيفيض الشعور والوعي بالمعلومات والبيانات الحسية التي تجعل الإدراك للأشياء عمليّة لا إراديّة ويصبح عقل المريض كالطوفان من المعلومات الحسية.

*الهلاوس: هي صورٌ عقلية شديدة القوة يعتقد المصاب أنّه يختبرها وأنها حقيقة وواقع، فيتخيّل الأصوات ويُكوّن الصور أو حتى يتخيل شم أو لمس هذه التهيؤات، فلا يَعرف المصاب هل هي في عقله فقط أم أنّ الجميع يرون ما يراه.

وكنتُ بغاية التركيز مع كل كلمة يقولها وهو يرفع نظارته، ثم سألته:

- هل يوجد علاج للمصابين بإنفصام الشخصية ؟

- بالطبع يوجد عدة طرق للعلاج: بالأدوية والعلاج النفسي، الجماعي، أو بالكهرباء وبالجراحة.

فقررتُ أن أطلب منه العلاج وأخبرته بأن يجلب الدواء المناسب.

- فقال : أنا مازلتُ طالبا لا يحق لي أن أصف لها دواء ولايصح ذلك إلا بعد مراجعة الطبيب المختص،

ثم رجوته وقلتُ له:

- أهلها يستعيبون الذهاب للطبيب النفسي فأرجو أن نساعدها في الشفاء دون إحراجها .

- قال: أمهليني مدة كي أستشير ذوي الإختصاص وإن كنتُ غير مقتنع بذلك!

بعدما سمعتهُ ظننتُ بأني مريضة وحينما آخذ الدواء سأتخلص من الهلاوس والإضطرابات السلوكية كالإنسحاب الإجتماعي والتمرد السلوكي الذي أخفيه.

وبعد يومين جاء باقر لمنزلنا ونلتُ فرصة الحديث لمفردنا مجدداً، وكان قد جلب لي معه علبة دواء سراً، وأكد على مراجعة الطبيب وأن توقف العلاج اذا بدأت أي أعراض جانبية، فشكرتهُ وكبرَ بنظري جداً لأنهُ كتوم حتى على خطيبته.

وبدأتُ أتناول العلاج حسب الإرشادات المرفقة، ولكن لم يتغير شيء سوى إن ثورة الغضب التي تنتابني كل فترة أصبحت أقل الحاحا وأخمدتُ نيرانها.

أما الهامسون فكانوا حقيقة وليست هلاوس ولم يفارقوني.

وبقيتُ على هذا الحال لحين موعد زفاف أختي سالي وترتيبات الحفل أعدتْ بسرعة، وكان الإتفاق في إحدى القاعات الكبيرة القريبة من الحي الذي نسكن فيه وكانتْ الدعوة عامة.

حضرتُ الحفلة بفستانٍ طويل لونهُ أسود وأكتفيتُ بوضع أكليل ورد البنفسج على رأسي، وتركتُ شعري منسدلاً دون وضع دبابيس وبهذا تخلصتُ من التقييد ولم أكلف نفسي شيئاً لأني لا أرغب بلفت الأنظار لي، بل أرغب تنفيذ الأشياء على بساطتها، الشيء الجديد لي أرتديتُ كعباً عالياً كي أبدو أكثر أناقة، وأقلل شيئاً من قصر قامتي .

وكُنا أنا وملاك نرحب بالضيوف ونوصلهم لطاولاتهم ومؤكد لم ننسى دعوة جارنا السيد إدوارد وعائلته وتم حضورهم، ورحبتُ بهِ وبزوجته وبدأتْ تكلم ملاك أي طاولة لهم ولمحتُ خلفهم رجل مرتدياً زي رسمي لونه أسود وحينها قال السيد إدوارد نسيتُ أن أعرفكم على أبني آدم فنظرتُ لهُ وكانتْ الدهشة تغمرني يا إلهي إنهُ آدم ! هو نفس الرجل الذي رأيته في المنام !

رحبنا به وكانتْ الكلمات خجلى ، وتقدمنا معهم لإيصالهم للطاولة وأنا أقول غريب ما معنى هذا؟

فقال آدم مَن هو الغريب؟ فلم أنتبه لصوتي الذي كان مسموعاً فإعتراني الخجل وإلتوت ساقي وسقطتُ أرضاً

فإنتبهوا جميعاً وإنحرجتُ كثيراً ولكن ماخفف عني ألم ولوعة الخجل هو إنشغال أفكاري به حيث كان إعجاب عام لشخصه الوقور ونسيتُ ألم التواء كاحلي.

فأنا لم أتوقع اللقاء في وقتٍ قريب لهذا الحد، وجلستُ معهم على نفس الطاولة لتعذر الخطوات عليّ بالإضافة أن السيدة كارولين أصرتْ أن أبقى قربها .

كنتُ أشتت نظري وابتساماتي عنهُ، وعندما أختلس النظر إليه أجده ينظر لي وعيناه الواسعتان أرعبتني، ثم قال:

- باغاتل هل يؤلمكِ كاحلكِ ؟

تمعنتُ في الإنصات لصوته .. يا إلهي نفس الصوت !!

ولكن إستجمعتُ قوايّ، قلتُ لهُ:

- أصبحتُ أفضل والحمد للّه.

أرتفعتْ الموسيقى وأبتهج الحاضرون، وهم يصفقون، وفي تلك الإثناء قال السيد إدوارد : هذه هي باغاتل التي كلمتكَ عنها في نفس الجامعة التي ستباشر فيها فرحب بي بإحترام عميق وهو مبتسماً، الدهشة والخجل جرّداني القدرة على

الكلام فإكتفيتُ بإبتسامةٍ وأنا أنظر لكأس العصير ولم أتمكن من النظر الى وجهه .

وحاولتُ أن أختلس معلوماتٍ منه لِتحليل شخصيتهُ من خلال التخاطر، فعلمتُ إنّ لهُ مزاجا معقداً ولديهِ شروط خاصة لشريكة حياته، وإنه خالي الفؤاد ولديهُ شخصية شاعرية، والحق أن الفلسفة كانتْ ملجأه الوحيد.

وفي طرفة عين كلمني آدم :

- أ لم نلتقي سابقاً؟

أرعبني سؤاله وأجبته بإرتباكٍ : لا أعرف أستاذ آدم .. رُبَّما التقينا سابقاً.

فضحك السيد إدوارد قائلاً لإبنهِ :

- من المؤكد إنك رأيتها فهي إبنة جارنا ياعبقري !!

وقد خجل آدم، ولم أفهم ما السبب الذي جعل منه يتكلم مع إبنه بهذهِ الطريقة المستفزة.

في تلك الأثناء جاءتْ ملاك لتأخذني وأتعكز عليها إلى طاولتنا، وحينها وقف آدم، وهو يشع سحراً ووقاراً وقال:

- سعيدٌ بمعرفتكِ.

- إبتسمتُ وقلتُ له: أنا أيضاً.

إستندتُ على ملاك الى أن وصلنا للطاولة وجلسنا ولم أبالي بمَن أطال النظر لي إلا سواه..ولم أتناول العشاء وإكتفيتُ بشرب العصير وأنا أتذكر ما رأيته في المنام، والغريب إني طلبتُ أن أرى مَن سأتزوج؟

والأغرب كيف لي أن أتزوج من رجلٍ ينتمي لغيرِ الإسلام، وإنتهتْ الحفلة ورجعنا للبيت، وأنا غارقة بكم هائل من الدهشة والإستفهام .

ومضتْ الأيام بعد ذلك اللقاء، وعدتُ لحالي الطبيعي إلا أنني وصلتُ لضنك فكري وتساؤلات عديدة لأني شاهدتُ بعض المحجبات يتعاملنّ مع الحجاب كمظهرٍ لا جوهر وبدأتُ اتمنى لو احداهنَّ تلتزم بحجابها وتحافظ على هيبة حجابها ومن هنا وجهتُ النقاش لنفسي ؟

لماذا لا أجعل مظهري كجوهري وأترك الخلق للخالق؟

وأقتدي بأختي سالي التي تحجبتْ مؤخراً حسب رغبة زوجها باقر بالإضافة لقناعتها، وخاصة أنا لا أنتظر إعجاب أو إرتباط فيكفيني واقعي المفروض عليَّ منذ ساعة ولادتي .

و في المرحلة الثانية في ٦ نوفمبر ٢٠٠٢ / ١رمضان ١٤٢٣قررتُ الحجاب وإلتزمتُ به.

وفرح البعض لأني تحجبتُ واستهزأ بي البعض الآخر، وجدتُ السعادة على وجه زملائي وزميلاتي من مذهب السُنة، وكذلك زميلاتي اللاتي غير المسلمات، ووجدتُ السخرية من بعض زملائي الذين من مذهب الإثنا عشريّة فأدركتُ حينها فعلاً الجوهر هو الذي يقود الفرد حتى وأن كان من مذهب آخر أو على ديانةٍ أخرى غير الإسلام.

فرح والديَّ بقرارِ حجابي، إلا إنهُما اعتادا على رفض عشقي لِلون الأسود حيث كنتُ أرتديه دوماً في البيت لأنهّ كانَ بنظرهم لون الحزن والتشاؤم، بينما كنتُ أجد فيه اِستقرار لتلاطم أفكاري في حياتي الراهنة والماضية.

في تلك الفترة تعرفتُ على فتاةٍ تدعى بلسم، رقيقة ورشيقة، وفيما بعد علمتُ إنها على الديانة المسيحية ووجدتُ فيها إحترام المبادىء والقيم، فقربتها الى نفسي أكثر فأكثر.

وتكرر اللقاء مع آدم ولِأكثرَ من مرةٍ، وكان جلّ ما يربُطنا تبادل التحِيّة .

الى أن فاجأني ذات مرة، وأنا كنتُ جالسة في كافتيريا الكلية ألقى التحية وجلس قربي وقال:

- مُبارك الحجاب ست باغاتل .

إبتسمتُ معه.. وقلت لهُ:

- شكراً أستاذ آدم، ولكن لماذا تقول ست؟

قال: لأنكِ دوماً تناديني بأستاذ .

طلبنا الشّاي وكان مثلي يفضلهُ بنكهة الهيل.

وقال: أ تعلمين اِسمكِ جميل بمقدار غرابته؟ مَن أختارهُ لكِ؟ ومامعناهُ؟

اِستجمعت قوايّ وأخبرتهُ:

- جدتي- رحمها اللّه - اِختارتهُ لي، وبأنهُ يعود لأصولٍ يونانية ومعناه هديَّة الرّب.

هزّ رأسه بإستحسان وقال:

- مُذهل.. بل هديّة اللّه !

حينها جاءتْ صديقتي بلسم وعرفتهما على بعض وفي تلك الاثناء رنّ هاتفهُ المحمول وإستأذن ورحل.

ابتسمتْ بلسم وقالتْ:

- كم هو جميل ومتواضع يبدو إنّهُ مهتمٌ بكِ

قلتُ لها: كوني جادة فهو أستاذي ..أرجوكِ كفى !

أربعة عشر عاماً بينكما ليستْ كثيرة ياباغاتل وبدأتْ تضحك.

لم أجيبها بأيّ كلمة وإكتفيتُ بإحتساء الشّاي وأنا أرسم عيناهُ في دفتري.

ومضتْ أيام وبدأتُ اناقش نفسي أيكون قدري أوصل بي لِهذهِ الدراسة كَيْ ألتقي بمَن حلمتُ بهِ؟

كنتُ سعيدةً لأني إخترتُ القانون فالعدل لاتحددهُ مصلحة طبقية مهما كان وزنها، لأنهُ مجموعة من القواعد العادلة التي أقرتها شريعة اللّه لمصلحة جميع الناس، وإنّ اختلافهم في مهاراتهم الجسدية والمادية يجمعهم على معنى سامٍ ..هو الإخوة.. وليس العداء الطبقي .

فالإخوة تجعل من الجميع سواسية أمام اللّه، وإنّ العُقد النفسية التي تولدتْ نتيجة الحقد الطبقي تؤدي الى إرساء قواعد التناحر الدموي وإتلاف القيم الإنسانية الرفيعة

جاء الإسلام ثورة على الفساد والعبودية لكي لانقضي على تميزنا القومي والديني بفلسفاتٍ مُرَقعة.

لذلك كنتُ أعتمد مبدأ الإخوة مع الجميع كسياسةٍ مرحلية وإنتقالية.

وفي أحد الأيام، كنتُ جالسة في القاعة أنتبه لمحاضرة مبادئ عدالة التشريع، وفجأة شاهدتُ ناصور الذي بمهارةٍ أثار إشمئزازي مُنذ الطفولة، وفاجأني صوتهُ كضربة جلّادٍ وقال:

- لا يتحقق العدل مع الضعفاء، فالعدل في كفة الأقوى دوماً.

أبعدتُ عيني عنه وتجاهلتُ كلامهُ المشؤوم ، وتمنيتُ قنبلة تنزلق على رأس هذا المخلوق، وفي تلك اللحظة مسك رأسي بيده وضربهُ بالمنضدةِ التي أمامي ضربتين وأختفى.

لم أرَ سوى الدم على أوراقي لا أشعر بوجهي، حركتُ يدي على أنفي، لم أشاهد سوى الدم !

حينها كانتْ أنظار الحاضرين موجهة إليّ ، وكان الجميع في دهشة عارمة، وكأنهم في بلاط العجائب المخيف وإرتفعتْ صرخات الفتيات بين الحاضرين ‹آه .. ها!.› وانبعثَ ضجيجاً شديداً ، قالوا :

- يا اللّه ..المسكينة ضربها الشيطان!

- ‹هدوء!› قال أستاذ جمال، وغمغم قائلاً:

- ‹ ليأخذكم اللّه سلطان

وأقترب مني مذعوراً ، وقال:

- مابكِ يا باغاتل؟ وأخذ يمسح الدم عن وجهي بمنديله متجاهلاً غموض ماحدث.

لم أنطقْ ولو بكلمة واحدة، وفي تلك البرهة، تذكرتُ أول ذكرى عندما تحسستُ من الدماء التي كانتْ على جسد الصغيرة، حينها تضاعف الغثيان وإحتد الظلام فسقطتُ أرضا، وسادَ الصّمتُ الكبير.

وبعد ذلك، فتحتُ عيني ورأيتُ نفسي في المستشفى وقربي بعض الزملاء وأستاذ جمال في الوهلة الأولى لم يستطع أستاذي أن يحكم ما إذا كنتُ من البشر أو جن أو الملائكة، وقال:

- الحمد للّه على سلامتكِ.
- فقلتُ له: شكرا جزيلا .

وكانتْ لحظة حرجة لأني سببتُ لهم المتاعب، وتأملتُ مليّا بموقفهم فأدركتُ هذه هي الإخوة.

شكرتُ الجميع على طيب موقفهم، وبعدها أوصلوني الى البيت، وكنتُ أفكر ماذا سأقول لهم إن سألوني عن بقع الدم على ملابسي وأوراقي.

وإذا ما فوجئت بأبي وأمي شاهدتهم خارج المنزل وفي إنتظاري.

اتجهتُ نحوهم وكنتُ أشعر بدوار قبّلوني وحمدوا اللّه كثيرا على رجوعي بسلام.

وبعدها علمتُ كانتْ معرفتهم من خلال اتصال متأخر من صديقتي بلسم، وفي المساء أخبرتني أمي :

- لدينا ضيوف.

إرتديتُ الحجاب وخرجتُ الى غرفة الإستقبال، فوجدتُ عائلة السيد إدوارد معهم باقة ورد ‹زنبق الكالا›، القيتُ التحية وجلستُ معهم مع أبي وأمي وكنتُ أجد نظرات حادة من آدم ، لم يبقوا سوى ربع ساعة وشكرناهم على اهتمامهم وتقديرهم لي، رغم سعادتي الكبيرة إلا إن أوجاعي كانتْ هي المسيطرة.

في منتصف الليل بعدما ذهبتْ أمي إلى غرفتها، سمعتُ شخيراً، خفتُ ونهضتُ بسرعة من فراشي. لم أصدق ماسمعتْ، قلتُ في نفسي كنتُ أحلم، اِختبئتُ من جديد تحت الغطاء وبعد دقائق نهضتُ مرة أخرى واِنتبهتُ من زجاج النافذة كان المكان يعمّه الصّمتْ، رجعتُ إلى فراشي رميتُ الوسادة والأغطية.

أوقنتُ حينها إنّ الصوت دون رؤية مصدره هو الأشد رعباً وسمعتُ حينها في أعماقي أصواتاً جافة تتكسر، نيران تصعد من قدميّ وتثير فيَّ رغبة الهروب من الواقع الذي خطفَ مني السعادة التي أرجوها .

الحب عندي إنفعال إنساني وغريباً في الوقت نفسه عاطفة قوية أساسها الصدق والحماسة، أما السعادة كانتْ بعيدة معلقة على كفيّ عفريت، وفي منقار غراب سافر بعيداً وراء جبال الواق الواق، وحاول أن ينسى إنّه يحمل شيئاً .

وكأن ما أمر به اِحتجاج على هوامش الهموم اليومية التي لاتفارقني .

في تلك الليلة تمنيتُ لو كنتُ طائراً، نورساً أبيضاً، ينشر جناحيه الواسعين فوق كل الأشياء الجميلة التي تثير الدهشة بمجرد رؤيتها بل بمجرد الإحساس بها.

وتمنيتُ لو كنتُ نحلة صغيرة تحوم فوق الزهور وتغوص في الأشياء الجميلة حتى التهلكة، شعرتُ برغبة في التبسم ولكن شيئاً ما لم أستطيع تحديده منعني من ذلك، ربّما كان البؤس كأمواج البحر صرع أحلامي، وجعلني أعيش كطفلةٍ كبيرةٍ.

يملأ قلبي الخوف والرَّهبة، كلّ شيءٍ حولي لايمُت لي، كلّ شيء غريب حتى أفعالي وأقوالي ثم نمتُ على دمعة، ورحتُ في النوم ..نوم مشوش بالأحلام خيم عليها الخوف!

وفجأة..

أيقظني بوق سيارة مرتْ بسرعة عند أقدامي، نهضتُ بسرعة، وحاولتُ أن أحدد موقعي، وجدتُ نفسي في وسط الشارع وأنا مرتدية بجامة النوم .

كلمتُ نفسي : ـ يا إلهي .! ما الذي نقلني هُنا ؟

قطعتُ الطريق حافية للعودة الى البيت، حينها لم يعد للمكابرة معنى.

وظننتُ العلاج هو السبب وراء تشتت أفكاري فقررتُ أن أتركه ورجعتُ للبيت خائبة، وكنتُ قلقة فيما إذا والديّ لمحوني عائدة وأنا حافية!

دخلتُ للبيت من دون أن ألفتُ اِنتباههم، ومايسر لي النجاح في ذلك كان الباب مفتوحاً، فدخلتُ بسرعةٍ الى الغرفة وبعدها قررتُ أن أصلي لقضاء حاجتي وهي أن أشفى من كلّ ما أمر بهِ وأن أعرف ما الحقيقة ؟

وما الذي يدور حولي؟

مرتْ أيامي كسابقها ولم يتغير شيئاً.

باشرتُ في اكتوبر ٢٠٠٣ المرحلة الثالثة ولم أجد صديقة أفضل من بلسم ولكن في هذه المرحلة آدم سأحضر في محاضراته بكلّ رغبةٍ وخوفٍ .

وجاء اليوم الذي أحضر فيه محاضرة لمن شوش أفكاري بظهوره في حياتي، ودخل وهو مملوء حيوية وعطاء، مشرق كالشمس، ولاحظتُ اكثر المعجبات فيهِ من زميلاتي وكُنّ على دينهِ، ونظر لي وكأنهُ كان يبحث عني هكذا فسرتُ نظرته لي.

آدم كان مميزاً بثقافتهِ، يجيد الفرنسية والإنكليزية وشاعراً في العربية.

سمعتُ إن ميلاده ١٣ يناير ١٩٦٩ وكان برجهُ الجدي فبدأتُ أهتم بالأبراج وأقارن بين برج الجدي والثور، وجدتُ مشتركاتٍ في العناد، وتقديس الأسرة وتمسكهم بالمبادئ.

وبعد مرور شهرين رنّ هاتفي رقم مجهول فلم أجيبه وبعدما يأس وردتني رسالة منه ‹أنتظر اتصال منكِ فأنا أحبكِ سلطان. تجاهلتُ الرسالة.

وفي اليوم التالي حضرتُ محاضرة آدم وبعدها وجدتهُ واقفاً قرب باب القسم وجاء بإتجاهي، وقال: أعتذر منكِ لأني أزعجتكِ أمس برسالتي، فاِندهشتُ وقلتُ له:

- لا أصدق أيعقل أنت؟

بكلِّ جرأةٍ قال:

- نعم أنا أحبكِ ياباغاتل.

لم أجيبه فقط تبادر لـذهني أن أخـبره إنـي علـى عجالـةٍ مـن أمري، وقلتُ بداخلي أيعقل إن مسار الحُب لا يجري بسلاسـةٍ لِتختفي آمال الزواج وتتعرض الأسرار للنـور وحينهـا تنفطـر القلوب، فقلتُ لهُ:

- بحق السماء ماذا تقول يا أستاذ آدم؟ لاشـيء في العـالم يوافق على هذا ؟

- لماذا تخجلي وتتردي أن تقعي في فخ الحُب؟

- أنه فخ . ولأنه لم يُخلق لي!

- هزّ برأسه، وقال لكِ ماتشائين!!

مضى ولم يعلم بأني أحببته أكثر منه !

وإنّ حُبي يحميني منه وله و يحميه مني ولي !

إنّ الحُب أنقى شعور وليس بمستطاع الواقع أن يساومهُ على البقاء لأن الواقع أقل نقاءً منهُ لذلك نندب حظنا غالباً أنا لم أحب واقع حياتي التي قستْ عليَّ دون ذنب،

ولم أكرهه يوماً ، اِكتفيتُ بحُبِ الخير للجميع .

وهذا ما يجعلني أحلق في أعلى سماوات نفسي المضيئة التي تمنحني السعادة والصمود.

مضتْ تلك المرحلة وبصعوبةٍ، وكنتُ منشغلة بتخطي تلك الفترة العصيبة، فكرتُ جِدّيّا في الموضوع وكنتُ متأكدة جداً من أن الشيءِ الذي نحلم بهِ و نحققهُ سيفقد من جمالهِ، وتقل قيمتهُ، والأمر يصبح عادياً، مُمل بسبب الروتين اليومي الذي يسحق الأحلام وتطلعاتنا.

فالتمسك بالحلم يمدّنا بالقوة الكامنة التي تلهمنا الصبر والسعادة، يصف الناس الحياة بأنها قاسية، وفي الحقيقة نحن مَن نجيد القسوة على أنفسنا، وعلى مَن حولنا لكي نستريح أو نُريح.

وبعد تجاوزي لذلك الصراع الخفي والمعاناة لِفراق أختي سالي بعد زواجها، والتي تركتْ فراغاً كبيراً في البيت رغم قرب سكنها منا إلا إني كنتُ أفتقدها، و في العطلة بعد نجاحي في المرحلة الثالثة كنتُ أتحرك في فراغ مفزع ولم تكن لي حياة أخرى أحياها ..

ملل قاتل وأنام فألبث في فراشي بلا حركة لا أنا النائمة ولا الصاحية .. مقيدة بخمولٍ الحبوب المهدئة التي كنتُ أحرص على تناولها كنتُ أقوم من رقادي لأعود إليه من جديد.

وفي المرحلة الرابعة نوفمبر ٢٠٠٤ شعرتُ بإعجاب أحد زملائي لي ولم أهتم لهُ ويدعى عُمر، وكان معتدل القامة، أنيق عيناه خضراوان وشعره أشقر وفي أحد الأيام كلمني بطريقة لطيفة الى حدٍ كبير وقال:

- مُنذ ثلاثة أعوام وأتابع تصرفاتكِ ولاحظتُ فيكِ كُلّ ماتمنيتُ لذا قررتُ أن أعرف مدى تقبّلكِ لي كَيْ يتسنى لنا زيارتكم لأتمكن من خطوبتكِ رسمياً.

- ‹لا أفكر في الزواج الآن فهو موضوع مؤجل لديّ وأتمنى أن تجد سعادتك مع غيري سلطان هكذا أجبته.

تلعثم بالكلام وتفاجئ من جوابي وكأنهُ كان ينتظر مني الموافقة، وقال:

- فكري في الموضوع أرجوكِ.

وأستدار بظهرهِ مرتعشاً كأغصانِ الشجرة !

تقدمتُ بخطواتي الى الحديقة، وجلستُ على المصطبة المنزوية، ونظرتُ لِلسماء الزرقاء التي إختنقتْ وتجمعتْ السُحب الداكنة وبدأ المطر ينزل بقوةٍ على الأرض وكانتْ الدموع كثيرةً على فقدان الأمل في الحُب والزواج.

وبعد مرور أسبوع جاء عُمر ليسألني عن الرد، فقلتُ لهُ:

- فكرتُ في الأمر لكن لا أفكر في الزواج، لاتنتظر سرابا لاحظتُ مشاعر الحزن اِحتلتْ ملامحه التي اِعتلاها الخجل، أغمض عينيه لثوانٍ، ونظر لِلأرض وقال:

- حسنا ..لكِ ماتشائين.

وفي تلك الأثناء لمحتُ آدم مقبلاً الى القسم، وعندما وصل سألني :

- ماذا يريد عُمر؟

ها ! أدهشني بسؤاله الذي سبق حتى التحيّة !

- قلتُ لهُ: لاشيء استاذ.

هزّ برأسه وفي عينيه ألف سؤال، سمعتُ أنفاسهُ المرتفعة ثم صعد السُلم.

اِستغربتُ من موقفه لأني تصورتُ بأنهُ تناسى اِعجابه بي واِنشغل بتفاصيل حياته الغامضة، وفي نفس الوقت أرتسمتْ اِبتسامة على وجهي لأني ربحتُ صدق مشاعرهُ وحُب تملكهُ لي إذا مافوجئت بصرخة في داخلي لكل منكما حياتهُ وهو على غير ديانة فلا تطلبي المستحيل!

كنتُ في تلك المرحلة قليلة الحضور ومشغولة بمشروع التخرج.

مضتْ تلك المرحلة بسرعةٍ رغم معاناتي في البيت وإختلاج مزاجي ولكن كنتُ أتسلى في متابعة الأبراج الفلكية وقراءة الكف والفنجان وأحيانا ألهو بالرسم.

اِعتدتُ أن أفكر بسوء الطالع الذي ينحر المشاعر أحيانا والذي يولّد الحقد والتمرُّد، ليدّعي الذهن المضطرب بالسرور رغم هسهسة الإزدراء من المقربين.

لم أخشَ ماأسمعه بأن قطار العمر قد يفوتنا دون رجعة، بل كنتُ متمسكة بالوحدة، فهي خير لي من دهسِ القطار بسوء الإختيار.

في فترة التخرج يونيو ٢٠٠٥ لم أسمع خبراً جميلاً سوى أن ملاك تخرجتْ من المرحلة الإعدادية وبمعدل خمسة وثمانون، وكانتْ مقررة تدرس هندسة الكهرباء، وفعلاً تم قبولها فيما بعد وفرحتُ لأجلها كثيراً.

****

الفصل الرابع

Salaheb

بعدَ مدة وجيزة من التخرج شعرتُ إنّ أحزاني رقدتْ بثقلٍ على صدري، وكانتْ وحدتي تضاعف ضغطها عليّ بالإضافة إلى أحزاني، وكانتْ مشاعر الكُرْه المختلط بالحُب تضيف المزيد من الأسى على المآسي، وجعلتْ بداخلي نار باردة، مما جعل صحتي معلولة وأدمنتُ اليقظة مما دفعني أن أفكر ماسبب هذه الفوضى أمعقول يكون هو الحُب ؟

الحُب دخان متلألىء، ممزوج بالتنهدات، إنّهُ جنونٌ وقورٌ مرارة قاتلة، خِفّة ثقيلة، ضُعفِ الطفولة، وقناع الفرح .

من المؤسف أن أعيش في نزاعٍ طوال هذا الوقت، ولم أعتقد بأنّ لديّ النضوج الكافي لأصبح عروسا !

بحثتُ عن كربٍ لِغيري كَيْ أعالج يأسي، فوجدتُ إوزَّتي غراب!

وفي يوم الخميس١ ديسمبر ٢٠٠٥/ ٢٩شوال١٤٢٦ زارتنا أختي سالي وأخبرتنا بأنها حامل في الاسبوع السادس باركنا لها وفرحنا بهذا الخبر الذي سيجعلني خالة، وبعدها طلبتْ مني أن تكلمني على إنفراد وقالتْ لي :

- ماهو رأيكِ بالزواج ؟ ألايوجد معجبا؟!

صمتتْ حروف اللُغة ونظرتُ للأرض، وقلتُ لها:

- أنا لاأفكر في الزواج في الوقتِ الرّاهن

قالتْ وبنبرة عالية:

- أنتِ فتاة جميلة وناضجة وهذه هي الحياة، لابُدَّ من اِكمال نصف الدين وأراكِ مؤمنة.

- أنا: أيرضي اللّه أن أتخلى عن نصف الدين الحالي كي أتمم النصف الآخر ؟!

- هي: ها! بالطبع لا. باغاتل لماذا تعقدين الحياة ؟

- أنا: وجدتُ من آلفه العقل قبل النظر لكن مستحيل أن يتزوجني !

- تشنجت ملامح وجهها، وقالتْ: مَن هذا بحق السّماء؟

- إبن جارنا المسيحي وأستاذي في الجامعة آدم .

- لطمتْ وجهها وقالتْ: أضاق العالم بكِ كي تفكري برجلٍ على غير الإسلام وأكبر منكِ، أمجنونة أنتِ؟

- قلتُ لها: وأنا أغتصب الكلمات نعم مجنونة!

بعد أيام لاحظتْ أمي على غير حالها كلما تلمحني وتقول إبنتي أصبحتْ عروسة !

فعرفتُ إن سالي أخبرتها بما عرفته مني، واعتبرتُ سالي ليستْ كتومة!

وفي أحدى الأمسيات دخلتْ أمي عليّ في غرفتي، وكانتْ تنظر لي بتمعن وجلستْ، وقالتْ:

- حبيبتي باغاتل العمر يمضي بسرعةٍ فلا تضيعيه.

- أجبتها: ماذا تقصدين يا أمي؟ بالرّغم من إني أعرف ماتقصد، ولكن تظاهرتُ بالبلادة!

- فكري بمستقبلكِ ولابُدَّ من إكمال نصف دينكِ بالزواج، وعليكِ أن تختاري مَن يناسبكِ بالدين والمذهب والعُمر.

- حسنا سأفعل يا أمي ..

- هي:أنا أشعر بأنكِ تميلين لإبن جارنا آدم هل هذا الشعور بمحله؟

- أنا: بصراحة !

- هي: بالتأكيد ياحبيبتي..إعتبريني صديقتكِ!

- أنا: نعم لديّ ميل عاطفي تجاههُ رغم كلّ العقبات!

- هي: كيف تفكرين بشخص على ديانةٍ أخرى وأكبر منكِ! هذا وهم كبير! وموافقة أبوكِ مستحيلة .

- أنا: لعلّ معجزة تحدث ويدخل الإسلام .

- هي: لاتغرقي في أحلام اليقظة مستحيل يفعل هذا من أجلكِ لأنهُ سيبقى منبوذا من والديه! إغلقي الموضوع ولاتفكري بتحقيق المستحيل !!

أنتِ على متسوىً راقٍ من العلم، وذكية، لاتجعلي صورتكِ تهتز أمام الجميع.

- أنا: حسنا .. إن شاء اللّه يا أمي.

وفي داخلي ناراً، ولكن تظاهرتُ بالقوةِ أمامها.

كنتُ أشعر بمراقبة منها، وكما اِعتدتُ أن أنصتُ لِكُلّ مَن يزرني وجائني إلهام أن أغير من روتين يومي الممل فقررتُ أن أرسم كيْ أتخلص من طاقتي السلبية، وبكلّ إرادةٍ لاأترك اللوحة إلا وأنتهي منها.

وفي يوم السبت١٠ديسمبر ٢٠٠٥ / ٨ذي القعدة ١٤٢٦ قررتُ أن أرسم آدم، وفجأة رنّ هاتفي المحمول وكان المتصل آدم إبتسمتُ وأجبته بتردّد :

- ألوو ..نعم

- السلام عليكم

- ها! وعليكم السلام أستاذ آدم وبداخلي إستغراب من التحيّة.

- باغاتل أنا أحتاج منكِ ربع ساعة فهل لي أن ألتقي بكِ في كافتيريا الجامعة غداً لديّ كلاماً في غاية الأهمية ولاينفع أخبركِ بهِ عبر الهاتف؟

- حسناً .. إن شاء اللّه غداً ..في الساعة التاسعة صباحاً سآتي للكافتيريا ..لكن.. إن وافق أبي على الخروج.

- شكراً لأنكِ منحتيني أملاً . رافقتكِ السلامة.

- لاشكر على واجب. في أمان اللّه وحفظه.

ثم عدتُ لأرسمهُ وغمرتُ فرشاتي في اللون، وأنا أرسم ما في ذهني عن الشخص الغامض الذي ربح مشاعري وإستغرقتُ في رسمها ثلاث ساعات

وفجأة ..

سمعتُ صوتاً عالياً ‹آدم يحبكِ وسيتزوج منكِ سلطان

حتى إنني انتفضتُ في مكاني بقوةٍ وإندفعتُ فرشاتي بقوةٍ نحو اللوحة ..

لوثتها تماماً، وأصبتُ بالهلع عندما وقعتُ عيني عليها رأيتُ بقعة سوداء على وجهه الباسم، وراحتْ تسيل حتى تساقطتْ على ملامح وجهه وأفسدتهُ تماماً.

وصوت الرجل يخترق رأسي بإلحاحٍ فإستدرتُ بعصبيةٍ لأراه .

وجدتُ رجلاً مرتدياً زي الشيوخ ولون ملابسه ناصعة البياض .أثار السكينة في قلبي ونسيتُ أمر اللوحة، وقلتُ لهُ: مَن أنتَ؟

قال: أنا الشيخ جلال الجحيشي، كان آدم طالباً في المرحلة الأولى و يحضر في محاضراتي في (المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) ولم أتصورهُ مسيحي ومن لبنان ظننته مسلماً لتفاعله العالي مع ما أطرحه خلال المحاضرة، وفي أحد الأيام جاء لمكتبي وطلب مني أن أعينه لإعتناق الدين الإسلامي ولم أقصر معه في أي شيء لحين نجاحهُ وحصولهُ على شهادة البكالوريوس، وفيما بعد تمكن من الحصول على الماجستير.

وبعد رجوعه لوطنه الأم وفي عام ٢٠٠٣ حدثتْ (معركة سقوط بغداد) [٨]

---

[٨] هي المعركة التي حصلت بين القوات المسلحة العراقية السابقة والجيش الأمريكي في أوائل شهر أبريل/نيسان عام ٢٠٠٣ أثناء عملية احتلال العراق عام ٢٠٠٣. قبل ثلاثة اسابيع من تاريخ هذه المعركة، بدأت القوات الأمريكية بالتحرك بإتجاه بغداد عاصمة العراق، عندما كان جورج بوش (الإبن) رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية، وعانت بغداد خلال هذه المعركة من ضررٍ كبير أصاب البُنى التحتية والاقتصاد، فضلاً عن عمليات النهب والسرقة التي حصلت بسبب انعدام الأمن، وقتل الآلاف من القوات المسلحة العراقية وعدد قليل من القوات الأمريكية، حسب ما كانت تنقله وسائل الإعلام الأمريكية.

وقتل العديد من المقاتلين الذين وفدوا إلى العراق قبيل عملية الغزو، وتم قتل العديد منهم، وتحديدًا في منطقة الأعظمية في بغداد وهؤلاء المقاتلون حاربوا بشدة وبأسلحة خفيفة ومتوسطة ضد آليات الجيش الأمريكي وشهدتْ مستشفى اليرموك في بغداد، وفود ١٠٠شهيد في الساعة أثناء تلك المعركة وكنتُ من ضمنهم!

ثم قال:

- لم أتردّد بزيارتي لهُ وأعلم إنهُ يبادلكِ بنفس المشاعر فضلاً عن إنهُ مثلكِ تماماً بمقدرتهُ أن يسمعني و يحاورني وهذا ما يخفيه عن الآخرين. نصيحتي لكِ ألاتفرطي بهِ فالعقباتْ بينكما وهمية ولاأي صحة لها!

فشعرتُ بدوار وإني في اعصار، مبهمة فيه سلامتي أو حتى الإيقاع بي!

لم أتمكن من فعل شيء سوى أن أنصتُ لهُ وحسب، ثمّ رحل الشيخ وأنا أفكر بكلّ ماقاله .

لم أتمكن من النوم ليلتها .. وخاصة بعدما وافق أبي على أن أذهب للجامعة ولمدة لاتتجاوز عن ساعتين.

جاء الصباح، وكأن اسئلتي التي حفظتها تم محوها بأشعة الشمس الذهبية .

وصلتُ إلى كافتيريا الجامعة، وكنتُ أمشي ونظري الى الأرض، لم أبحث عنه بين الحضور، وإتجهت لإحدى الطاولات، وجلستُ وفتحتُ الحقيبة لأشغل نفسي بهاتفي المحمول، وفي تلك الأثناء جاء آدم وجلس أمامي .

تبادلنا التحيّة، وقال:

- لماذا لاتنظري لي ؟

اتجهتُ بأنظاري نحوه، وكانتْ أنفاسي مضطربة ثم طلب لنا الشّاي.

وبعدها قال:

- باغاتل، سبق لي وقررتُ بأني لن أتزوج لما فيّ من أسرارٍ تغيب عن أقرب المقربين لي، وفي الحقيقة عندما رأيتكُ منذ أول لقاء في المأدبة شعرتُ بأني كنتُ مخطئاً بقراري وسيأتي اليوم الذي تعرفين به كلّ اسراري وستنتصرين عليّ وعلى عنادي! وهذا سر هروبي من نظراتكِ حينها.

- كيف ؟؟ وحينها شعرتُ بالهزيمة في داخلي وليس الانتصار كما يقول!

- سأختصر الكلام. أنا أسلمت منذ عام ١٩٩٥، ولم يعلما والديّ ولا اقاربي بذلك إلا مؤخراً وكنتُ في ثورة التقبّل معهم الى أن تقبّلوا وضعي، أنا أسمع الهامسون مثلكِ، وفيكِ وجدتُ ذاتي، لذا قررتُ الإرتباط بك، فكري

بالموضوع، والخميس القادم سنزوركم إن شاء اللّه ..لِنطلب يدكِ رسمياً .

- نعم سأفكر وأختتمتْ اللقاء على عجلة ورجعتْ للبيت فوراً.

وكانتْ أمي تراقب حركتي وعدم شهيتي للطعام، وفي المساء ذهبتْ للمطبخ لأكلم أمي .

جلستْ قربها وكانتْ منشغلة بتلميع بعض الكؤوس وأخبرتها بأنّ آدم مسلم ويرغب بالزواج مني وسيزورنا مع عائلته يوم الخميس المقبل..

تفاجأت والغضب سيطر عليها، وقالتْ: سأخبر أباكِ ولكني لستْ موافقة.

اتصلتْ بملاك واخبرتها بما حدث، وكانتْ تمنحني املاً دوماً.

وفي اليوم التالي في الصباح قبّلتْ أبي، وقال:

- لاتهربي اِجلسي لديّ موضوع معكِ .

جلستْ والرُعب شتت أفكاري .

- نعم أبي تفضل .

- أمكِ أخبرتني بأنّ آدم سيتقدم لكِ. وإنّه معتنق للإسلام ولكن.. ألم تفكري بفارق العُمر؟ ألم تفكري بمذهبنا ؟

- بصراحة فكرتُ ولم أجد معرقلاً، وأنا مقتنعة به.

- لكن أنا لم أقتنع، مازلتِ صغيرة، والحياة منحتني خبرة أكثر منكِ.

- تجمد الدم في عروقي، وقلتُ له: فكر في الموضوع لأجل سعادتي.

حينها جاءتْ أمي وقالتْ:

- أنا لستُ راضية على هذا الكلام فكري في عقلكِ يا أبنتي لا تفكري في قلبكِ.

واتجهتْ بنظرها لأبي قائلة : لاتقلق ياعلي ليس من أخلاق أبنتنا أن تعصي كلامنا.

- اِختنقتْ والخيبة عصرتْ قلبي، قلتُ لهما: القرار لكما وليس لي.

وذهبتُ إلى غرفتي والحزن اجتاحني، وبعدها تذكرتُ الحلم ومشاعرنا أنا وآدم وكلام الشيخ لاحظتُ كلّ ذلك يدعمنا ولكن مَن سيغير رأي أبي وأمي ؟؟

وحينها صليتُ ركعتين لِقضاء حاجتي .

ومرتْ ساعات تلك الليلة مثقلة بالحزن والحسرات

ولم أنم لأني غالباً ماكنتُ اعاني من الأرق.

وفي صباح الثلاثاء، قبّلتُ أبي وأمي ولاحظا ملامحي المرهقة وقال أبي:

- مازلتِ تعانين من الأرق؟ لماذا لا نذهب لنستشير الطبيب؟

- قلتُ له: فيما بعد لاتقلق. وإنصرفتُ لحديقتنا الصغيرة إذا ما أسمع صوت أبي توقفي!

- توقفتُ ورجعتُ بخطواتي : نعم .

- لم تسأليني على رأيي بخصوص آدم؟

فتحتُ عيني وبشدة وتسارعتْ نبضاتي، وتصلبتُ في مكاني:

- ماهو رأيك؟

- هو: لستُ موافقاً !

أغمضتُ عيني بحزنٍ لايوصف.

سمعتُ ضحكته العالية وقال: أمزح معكِ.

فتحتُ عيني واتجهتُ نحوه وقبّلتهُ ثم أقتربتُ أمي وقالتْ:

- ألاتوجد قبلة لي؟

- فإتجهتُ نحوها وقبّلتها، وكنتُ أطير فرحاً.

ذهبتُ مسرعة وإتصلتُ بصديقتي بلسم وكانتْ سعيدة بما سمعتْ مني ووعدتني بأنها ستزورني غداً كي تعرف الموضوع بتفاصيله .

وإتصلتُ بملاك وأخبرتها بما حدث لأنها تشاركني في كل أفراحي وأحزاني .

ثم إتصلتُ بسالي وأخبرتها بالموضوع وكنتُ أشعر بالخوف من نقدها ولكنها أدهشتني بضحكتها العالية قائلة:

- يامجنونة أنا مَن أقنع أمي وأبي، ليلة البارحة كلمتهم وتوسلتُ بهم وختاماً نجحتُ في إقناعهم.

- أدهشتني بما قالتْ والغريب بأنها لم تسيء لمزاجي الصافي بكلمة مجنونة!

شكرتها لوقوفها لجانبي، وإعتذرتُ منها لأني اسأتُ الظن بها لأنها باحتْ بسري فظننتها ليستْ بكتومةٍ!

وعدتْ ساعات ذلك اليوم بخفةٍ وشعرتُ بسعادةٍ غريبةٍ لم أعرفها من قبل.

وجاء يوم الأربعاء وجاءتْ بلسم، وأخبرتها بكل مايتيح لي أن أخبرها به فليس بوسعي أن أخبرها بكلّ شيء .

وكذلك ملاك جاءتْ وجلبتْ لي هدية رائعة والتي كانتْ فستاناً بنفسجياً مطعماً بكرستالٍ اسود ، وكانتْ هديتها في وقتها المناسب لأني لا أملك فستان جديد.

وفيما بعد اِتصلتُ بأختي وأخبرتها بهدية ملاك وبأني لا أملك شالاً وحذاء، قالتْ:

- حسناً ..أنا سأجلب لكِ الشال والحذاء .

- كيف ستعرفي قياسي؟

- فضحكتْ بصوتٍ عالٍ وقالتْ: لاعليكِ سأخبر صاحب المحل أريد حذاء سندريلا بقياس ٣٦ ولكن لونه أسود !

- تمكنتْ من رسم البسمة على وجهي وبكلّ مهارةٍ.

وفي صباح يوم الخميس، جاءتْ سالي

وجلبتْ لي ماطلبتهُ منها، وكنتُ سعيدة بها لأنها مليئة حيوية

وعندما حلّ المساء رنّ جرس الباب وجاء السيد إدوارد وزوجته مع آدم .

رحبوا بهم والبهجة على وجوه الجميع، أما أنا كنتُ في المطبخ أختلس النظراتِ وكانتْ قربي ملاك تعد الشّاي.

جاءتْ سالي، وقالتْ:

- فتحوا الموضوع مع أبي وأمي وإنهم يعلموا بأن إبنهم على ديننا أليس غريب موقفهم؟

وأبي قال لهم:

- إن شاء اللّه خير . ولكن لابد من أن نعرف رد باغاتل وسنخبركم بالرد النهائي خلال الأسبوع القادم.

وقالتْ لي:

- كُل ماعليكِ الآن أن ترحبين بهم وتقدمي لهم الشّاي.

وفعلتُ ذلك، وقلبي تتسارع نبضاتهُ وكنتُ أخشى أن أتعثر بما أمامي من فرط إرتباكي .

سلمتُ عليهم ولمحتُ بريق السعادة في وجوههم .

ومضتْ تلك الليلة، ومابعدها وفي يوم الأربعاء ٢١ديسمبر٢٠٠٥ / ١٩ذي القعدة ١٤٢٦ بلغنا عائلة السيد إدوارد بموافقتنا .

وتم الإتفاق يوم الخطوبة والعقد سيكونان في يوم الأحد المصادف رأس السنة .

وخلال تلك الأيام خرجتُ كثيراً مع أمي وأختي لنهيء لوازم المناسبة، وجلبتُ ساعة كهديةٍ الى آدم بمناسبة عيد ميلاده حتى وأن كانتْ متأخرة عليه لأيام.

كان آدم يتصل بي يوميا لمدة لاتتجاوز عن ربع ساعة وكنتُ أشعر بفترة إنتقالية في عُمري الذي مضى دون أن أتخذ أي قرار مصيري في حياتي .

وفي يوم الأحد ١ يناير ٢٠٠٦/ ١ ذي الحجة ١٤٢٦، أنشغلتُ منذ الصباح لحين وقت الحفلة الصغيرة وكانتْ أمي وأختي منشغلتان ايضاً بترتيبات الحفلة وجاء عمي مهدي وإبنته ملاك وعمي الأكبر ياسين وابنه باقر، بالإضافة الى خالي فراس وزوجتهُ وطفلتيهِ، كنتُ سعيدة بوجودهم حولي ولكن بداخلي صوت يوخزني بأنّ الفرحة لاتدوم .

بدأتْ الحفلة الصغيرة وألبسني خاتم الخطوبة وقبّل جبهتي.

كنتُ صامتة لا أجيد الكلام ، ومضى وقت الحفلة وكنتُ أريد أن أستلقي فكان الصداع يطوق أفكاري ويعصر فرحتي.

اتصل بي آدم ليلاً، ولكن لم اتمكن من الرّد عليه لأني كنتُ أعاني من الغثيان .

وفي تلك الأثناء.. جاء مَن لا تألفه روحي ناصور الذي إعتاد على ضربي .

وقال:

- لماذا لم توافقي بي، أنا أحبكِ قبل آدم.

صرفتُ بنظري لِلحائطِ مُنزعجة منهُ وقلتُ لهُ:

- لاتثرثر لا أطيق سماع أي شيء الآن .

- فقال: إن لم توافقي بي سأجعلكِ تخسرين آدم وللأبد! سأسعى لِموتهِ دائما.

سأدعكِ تفكرين بالأمر..ثم رحل .

أزعجني بمجيئه وكنتُ أسخر مما سمعتُ أمامهُ وفي داخلي بحر مخاوف على آدم منهُ!

وأخذتُ المهدئات لعلي أتخلص من صداعي وبعد ذلك لحين الفجر قلتُ حدة الصداع وصليتُ صلاة الصبح .

وأرسلتُ رسالة لآدم اعتذر منه لعدم الرّد عليه لكوني كنتُ أعاني من نوبة صداع .

وبعدها نمتُ، وعندما اِستيقظتُ أول مافعلتهُ مسكتُ هاتفي المحمول ووجدتُ رسالة من آدم وكتب فيها:

سلطان شعرتُ بأنكِ مريضة لذا لم أكرر الإتصال .سلامتكِ ياجنّتي في الأرض › .

أسعدني بإحساسه العالي ونهضتُ من فراشي لأحيا يوماً جديداً وكلّ مافي داخلي حُب وسعادة وتفاؤل.

إتصلتُ به ووضحتُ له مامررتُ به، وتم الإتفاق على إن موعد الزفاف سيكون في يوم ذكرى ميلادي في يوم الأحد ١٤ مايو ٢٠٠٦ ثم قال:

ـ بعد أن نذهب للحج، وبعد شهري محرم وصفر إن شاء اللّه.

ـ ها !! الحج !

ـ نعم .. لماذا لا؟ سمعتُ بأن والديكِ عزما على الحج في الايام المقبلة .. فلنشرع للحج معهم .

ـ صحيح فعلاً ..فكرة صائبة.. سأخبرهم بذلك واعيد الإتصال بك.

اخبرتهم ورحبوا بفكرتهِ الرصينة كما وصفها أبي.

عدتُ الإتصال به واخبرتهُ بمدى استحسانهم لِفكرتهِ.

وفي يوم الجمعة ٦يناير ٢٠٠٦ / ٦ذي الحجة ١٤٢٦ انطلقنا الى مكة المكرمة ، وكنتُ اسألهم في ايضاح ما اجهل من مناسك الحج لأني أخشى أن تبطل حجتي.

وبدأ مناسك الحج في الثامن من شهر ذي الحجة بأن يقوم الحاج بالإحرام من مواقيت الحج المحددة، ثم التوجه إلى مكة ليقوم بطواف القدوم، ثم التوجه إلى منى لقضاء يوم التروية ثم التوجه إلى عرفة لقضاء يوم عرفة، بعد ذلك رمي الجمرات في جمرة العقبة الكبرى، والعودة إلى مكة

ليقوم بطواف الإفاضة، ثم يعود إلى منى لقضاء أيام التشريق، ويعود الحاج مرة أخرى إلى مكة ليقوم بطواف الوداع ومغادرة الأماكن المقدسة.

وصلينا ركعتي الطواف خلف مقام نبي اللّه ابراهيم-عليه السلام- ومن المؤكد تشرفنا في المدينة المنورة بزيارة قبر رسولنا الأكرم محمد بن عبد اللّه- صلى اللّه عليه وآله واصحابه وسلم-، وكذلك زُرنا مقبرة البقيع المدفون فيها الأئمة الأربعة : الإمام الحسن المجتبى، الإمام السجاد، الإمام محمد الباقر، الإمام الصادق-عليهم السلام-.

قضينا أجمل أيام العُمر هنالك.. ولم نكف عن الإتصال بسالي للإطمئنان عليها وعلى حالها في فترة الحمل وجلبنا الكثير من المقتنيات لها من الاسواق التي تجولنا فيها.

في يوم الخميس ٢٦يناير٢٠٠٦/ ٢٦ ذي الحجة ١٤٢٦

تم رجوعنا الى ديارنا وبسلام.

وحالما عدتُ رجعتُ لخوفي من المجهول في الأشهر القادمة وفي الصباح شعرتُ بثقلٍ وإضطراب يدفع عقلي على طرح سؤال كان دائما يراودني: أكنتُ ميتة أم نائمة؟ وكأني في متاهة بل في اِعصار متمادي يجرفني لعزلةٍ تامة، وكان في داخلي صراع مرير بين العقل والجنون.

مر يومان ولا أملك تواصل مع العالم سوى الأفكار، وبعد الحاح وافقتُ على تلبية طلب ملاك وسالي للخروج معهنّ الى المجمع التجاري القريب من البيت، وذلك لشراء بعض المقتنيات، والجميع كانوا يلاحظون هروبي منهم، ولكن كنتُ أخفي عنهم مخاوفي الغامضة بشأن آدم ، أو عالمي الخاص، وأولى المواقف التي تعرضتُ لها قرب باب المجمع شاهدتُ صبياً واقفاً في الشارع وجاءتْ سيارة مسرعة خلفهُ ودهستهُ.. فصرختُ: لا !!

وركضتُ نحوه إذا ما شعرتُ بمَن يمسكني ويمنعني من الحركة، استدرتُ للوراء وجدتُها سالي وقالتْ بنبرةٍ يعلوها الحزن: توقفي .. مابكِ؟

أجبتها: الصبي دهستهُ السيارة وبدأتُ اسمع دقات قلبي.

قالتْ: السيارة مرتْ بسرعة ولكن لايوجد أي صبي كفاكِ تهيؤات ياحبيبتي .

أمعنتُ النظر في الشارع وجدتُ الصبي نفسه مازال واقفاً و مبتسماً، فأدركتُ أن نهايته كانتْ هنا يوماً ما! فتفجرتْ خجلاً حينها وتمنيتُ لو لم أخرج معهنّ!

وبعد ذلك تجولنا في المجمع ساعتين الى ان أنتهينا من التسوق وعُدنا الى البيت.

وبعدها اِتصلتُ بـآدم وأخبرتـهُ بماحـدث معـي، خفـف عـني وقال:

- لاعليكِ ستفرج قريباً عندما نتـزوج بعـونِ اللّه ، اعلـم بأنكِ قلقة عليّ ولكن تذكري بأن العُمر واحد ولاينتهـي إلا بأمرٍ من الأحد الصمد.

اِستجبتُ لمحاولته لإخراجي من العتمة الحالكة، وقلتُ لهُ:

- سأحاول. بمشيئة اللّه.

- أعددتُ لكِ مفاجأة أريد ان احجز لنا للسـفر الى سـوريا لزيارة العقيلة زينب (عليها السلام) ، وذلك بعد العاشر مـن محرم .

أسعدني بذلك الأمر وقلتُ له أريد ان تـأتي أمـي معنـا لطالما كانتُ تحلم بزيارة السيدة زينب (عليها السلام).

ووافق ورحب بها وقال:

- يسعدني مجيء خالتي فردوس معنا .

تمكن بسهولة من إزاحـة همـي بمنحـي كمـاً هـائلاً مـن الطاقة الإيجابية.

انهيتُ المكالمة على عُجالة كي أبلغ أمي وأبـي بمـا أعَـدهُ آدم من مفاجأةٍ لي .

اخبرتهم ولم يعارضوا على هذه الرحلة ورحبتُ أمي بالدعوة.

وخلال تلك الأيام كنتُ أشهد رونقاً لحياتي وكأن كلّ العقبات بدأتْ تتلاشى، ومع كل ذلك في داخلي صوت يحذرني بأن الحزن لاموعد له ويأتي دون استئذان. وبالرغم من الفرحة غير المكتملة حيال صوتي الداخلي. إلا إني كنتُ اكابر ولا اتظاهر بشيءٍ سوى السعادة على ابسط نحو.

وفي يوم السبت ٤فبراير٢٠٠٦ / ٥محرم ١٤٢٧ ذهبنا للنبطية حيث منزل جدي حسين (رحمه اللّه) وكان معنا آدم لإحياء مراسيم الشعائر الحسينية، والعاشر من محرّم يومٌ تتحوّل فيه الضاحية الجنوبية لبيروت خزاناً بشرياً يمتدّ كيلومترات يتجمّع فيها عشرات الآلاف، وهم متشحون بالسواد وبصوتٍ واحد يردّدون شعارات قالها مناصرو الإمام الحسين قبل نحو ١٤٠٠ عام.

ومن المراسم العاشورائية المميزة ، وجبة الهريسة فقد اجتمع عشرات الشباب والرجال وكان معهم ابي وعمي وابناء عمي وآدم ، يُعدون "الأكلة" الأشهر في عاشوراء.

وعند كل مفترق حاجزاً أمنياً، وبعد السير كيلومترات نجد آلاف المشاركين، مفترشين الأرض ومستمعين بإصغاء الى المجلس. التأثر واضح على الجميع، فهذا المجلس الأخير حيث سيتلو قارئ العزاء مصرع الإمام الحسين بمشهدية كاملة والبكاء يعلو عند وصول القارئ وصف

حالة أنصار الحسين (عليه السلام) وأهل بيته لحظة نحر رأسه، ليصرخ أحدهم ويغيب عن الوعي، فيدخل المسعفون سريعاً. وبعيداً من المجلس، ينظم عناصر الحزب مواكب اللطم، وكشافة المهدي، رافعين الرايات الحسينية، وأعلام لبنان و"حزب اللّه" وفلسطين، بينما الفرقة الموسيقية تتقدّم هذه المواكب.

وفي يوم الأربعاء ١٥فبراير٢٠٠٦ /١٦محرم ١٤٢٧ تمكنا من السفر والوصول الى (بلدة السيدة زينب عليها السلام)[٩]

---

(٩) كانت تعرف قديما بإسم بلدة راوية، وسميت بإسم السيدة زينب نسبة لزينب إبنة الإمام (عليهما السلام) فيها مقامها الشهير، وتبعد ١٠ كم من جنوب العاصمة دمشق، وتعتبر مركز ناحية تابعة إداريا لمحافظة ريف دمشق وهي من المناطق السكنية ذات الكثافة السكانية العالية، والتي تقطنها أعداد كبيرة من أبناء الطائفة الشيعية و الطائفة السنية الذين يعتبرون النسبة الكبرى من السكان. كما أنها تعتبر منطقة سياحية ودينية يزورها مئات الآلف من السياح والزوار من الطائفة الشيعية من إيران والعراق ودول الخليج ولبنان وباكستان والهند وأفغانستان وغيرهم من الدول على مدار السنة.

مقام السيدة أو قبر الست من أهم معالم السيدة زينب ويعتبر المسجد الجامع من التحف المعمارية ومن المقامات والأماكن الدينية الهامة، وقبته الشهيرة ويتكون من بناء تتوسطه باحة وفناء واسع وللمسجد مدخلان مدخل من الجهة الشمالية ومدخل من الجهة الغربية وهذا المدخل يتصل بالسوق الرئيسي الكبير في البلدة وهناك رواق كبير تحيط به الغرف والقاعات ومنها غرف مخصصة لمنام ومبيت الزائرين، الحرم له باب مصفح بالنحاس المزخرف والمنقوش وترتفع مأذنة المسجد والمقام محاط بسور وحلقات من الفضة الخالصة ومصنوع بحرفية وفن راقي وبديع وفي الداخل يوجد غطاء الضريح الخشبي المصنوع من خشب الابنوس الفخم ومطعم بالعاج والذهب وهو تحفة فنية ومحاط بسور من الزجاج البلور الصافي.

وكانتْ من أجمل الرحلات في المدينة التي لاتنام .. ونزلنا في فندق الحسنين .. وقضينا أجمل الأوقات .

ثم عُدنا الى الحبيبة بيروت ولم ننسى تلك الأوقات.

واول ليلة من عودتنا اتصل آدم وسألني:

ان وفقنا اللّه وتزوجنا ماذا سنسمي ابننا او ابنتنا؟

لم أعرف ماذا اجيبه! . فسهل الأمر عليَّ وقال:

- عليكِ الفتاة وعليَّ الصَبي.

فكرتْ وتأملتْ بما يعجبني من اسماء وقلتْ لهُ:

- أريد اسمها يكون رُوح.

- أما أنا أختار أن يكون مُصطفى .

لم يعارض أحدنا الآخر على اختياره.

اتفقنا وبداخلي دهشة تصرخ لماذا يفكر للمستقبل البعيد بهذهِ اللهفة ؟ ثم قال:

- أ تعلمي لو لم يكن في العراق حرب اهلية لذهبنا لزيارة سيد الشهداء الحسين (عليه السلام) في كربلاء والعسكرين (عليهما السلام) في سامراء ، وامير المؤمنين(عليه السلام) في النجف، والجوادين (عليهما السلام) في بغداد ؟ شعرتْ بصوته حزن شديد ..

- إن شاء اللّه سنفعل ذلك ريثما تسمح الظروف لنا بذلك.

- فأجابني بسؤال: لِمَ لا نذهب لزيارة السيدة خولة بنت الحُسين(عليهما السلام) في بعلبك ؟.

فوافقتُ مباشرة وكُلّي شوق لزيارتها .

شاركني الفرحة قائلاً:

- أودُ يا باغاتل أن أزور معكِ كلّ المعالم المقدسة في لبنان والعالم.

- لا شك بأنّ رغبتي لاتقل عن رغبتك في ذلك.

- حسناً.. لدينا ما يقارب شهرين لنحقق كل ما نحلم به .

وفعلاً في لبنان تمكنا من زيارة السيدة خولة بنت الحسين (عليهما السلام) ، ومقام أبا فضل العباس ابن الإمام علي (عليهما السلام) الذي استشهد في واقعة الطف في كربلاء مع أخيه الحُسين (عليه السلام)، وزُرنا مقام النبي شيت (عليه السلام) والذي يعود بناءه لأكثر من الف سنة، والذي ذكره الرحالة إبن بطوطة في رحلته من إسبانيا الى الشرق وكذلك تشرفنا بزيارة مقام النبي إسماعيل إبن ابراهيم(عليهما السلام)، ومقام النبي يوسف وأخوه بنيامين (عليهما السلام)، ومقام سام بن نوح (عليهما السلام) ومقام النبي يوشع وهو وصي النبي موسى (عليهما السلام) ومقام الخضر

(عليه السلام) في بلدة الخضر، ومقام النبي شمعون(عليه السلام) في قرية الناقورة، وزرنا بلدة كفرة التي فيها مقام النبي يونس (عليه السلام)، وايضا مقام السيدة البطحاء وضريح النبي إلياس(عليه السلام) وضريح النبي عُمران والد السيدة العذراء (عليهما السلام) .

وكُنا نلتقط الصُور في كلّ مكان زرناهُ، وكُنا نشتري قطع الديكور وندوّن عليها تأريخ رحلتنا عليها .

عندما كنتُ أتمشى معهُ ماسكة بيده كان ينتابني شعور جم مليء بالثقة والأمان .

وكأن السَّماء عانقتْ الأرض في تلك الأيام، وتجاهلتُ كُلّ مايثير ضعفي، والأفكار التي تهددني بخسارتي لآدم بل كنتُ أصنع منها أملاً كيما انهك إرادتي .

ومرتْ الأيام بسرعة والأيام تخللها كثير من المتاعب لوالدتي واختي سالي وإبنة عمي ملاك وكذلك أم آدم في ترتيبات ولوازم الزفاف وكلّ ما نحتاجهُ من أثاث وملابس وكُلّ تفاصيل الحياة الجديدة التي طرقنا بابها، وتم الإتفاق على إقامتنا ستكون في منزل عائلة آدم، والذي يمتاز بقربه من منزل عائلتي لطالما كان هذا حلم كل فتاة تعسر عليها فراق مَن احتواها طيلة حياتها (أسرتها)، وإن كان ذلك الأمر يثير تحفظ بعض الرجال ولكن مؤكد سيفهمون لاحقاً ما تعنيه كُلّ فتاة، إن كبرتْ إبنة

أحدهم وأوشكتْ على الزواج حينها سيدرك ألم الفراق بل نجد منهم مَن يُحدد يجب أن تكون إبنته قريبة منه في السكن، وهذا شيء مبرر فطريا فكُل منا ينظر لِمشاعره ولِذاته بنظرة استثنائية ولكن بنسبٍ متفاوتة بين شخصٍ وآخر.

وزارنا آدم يوم السبت وبشكل مفاجئ ولكن انحرجتُ منهُ لأني لم اكن مهتمة بمظهري وقال مبتسما :

ـ أنتِ جميلة في كُل الاوقات. رغم إنني لم اتفوه بحرفٍ فأدركتُ إنهُ تخاطر معي .

وقدم لي بوكيه ورد اصفر اللون، زهور كروية، صغيرة ريشية ذات أريج مميز. اخذتهُ منهُ وقال:

ـ لو سمحتِ لاتحملي مسكة العروس التي جلبوها لكِ ، أعلم بأنكِ تفضلي زهور التوليب ولكن أنا أفضل ان تحملي زهور الأكاسيا بدلاً من تلك الباقة البيضاء الكلاسيكية وافقتُ على طلبه دون أن أفكر ولكن في داخلي فضول يتفجر ما السر وراء اختيارهُ لهذا النوع من الزهور ؟ لم اسألهُ وقال مسرعاً لا اوصيكِ عليكِ ان تلتزمي بالحجاب غداً ولا أحبذ مساحيق التجميل المبالغ بها .

قلتُ لهُ: نعم بالتأكيد يا أبا مصطفى .

فإبتسم بدهشةٍ لِما ناديتهُ بهِ، وراق لهُ ذلك كثيراً، وقال:

ـ أنتِ جنتي في الأرض ! وقبّل جبهتي ثم رحل .

وبعد ذلك بدأتُ بالبحث عما ترمز اليه هذه الزهور فوجدتها تدل على الحُب غير المعلن أو عن فراق الأحبة.

إستغربتُ من ذلك كيف حبهُ غير مُعلن وغداً موعد الزفاف أيوجد اعلان للحُب أكبر من الزفاف؟

ولكن كبرتْ غصة الخوف من الفراق في داخلي ثم أقنعتُ نفسي بأنهُ اختار تلك الباقة لمجرد إنهُ يفضل مظهرها وعطرها.

و جاء موعد الزفاف الموافق يوم الأحد ١٤ مايو٢٠٠٦ / ١٦ربيع الثاني١٤٢٧ بعدما أصبحتُ مؤخراً واثقة بأني لن أخذَل وأبواب السعادة فتحت لي.

في قاعة الأعراس أقمنا الحفلة في الساعة السادسة حضر المدعوون والفرحة تتقافز على وجوه أحبتنا وحملتُ باقة الأكاسيا، أما آدم كان مرتدياً اللون الأسود تفاجأتُ من اختياره لهذا اللون .

وسألتهُ:

ـ ما سرّ ارتداء اللون الأسود ؟

فقال:

ـ لكي أثبتُ لكِ بأنّي أحبهُ أكثر منكِ!

ثم قال هامساً:

- كم تبدين جميلة اليوم ، وكأنكِ الشمس يا باغاتل !.

خجلتُ منهُ وبدأتُ انظر للحاضرين .

ولاحظتُ بأن عقد اللؤلؤ الذي اهداني إياه كاد أن يسقط مني وهو أيضاً لاحظ ذات الشيء فمسكتهُ محاولةً ارتداؤه لأن آدم كان واقفاً ليرحب بحضور الدكتور جمال، وفي تلك الأثناء سمعتُ دوي سقوط شيء ما على الأرض شعرتُ بظلمةٍ أحاطت على بصري رفعتُ رأسي وجدتُ المدعويين بدهشةٍ وأسىً ويركضون نحونا وبدأتُ اسمع دقات قلبي وحبستُ أنفاسي وتجهتُ بنظري نحو آدم اذا ما أراه مفترش الأرض وحولهُ مَن يريد أن يستعيد وعيه، اقتربتُ منهُ مسكتُ يده وروحي تُعتصر انهمرتْ دموعي وبدأتُ أردد: آدم لاتتركني.

فسمعتُ صوتاً من خلفي ومَن قال لكِ بأني سأتركك؟

استدرتُ لحظتها فوجدتهُ آدم وعدتُ بنظري كالمجنونة للأرض وجدته لم يزل كما هو !

أدركتُ حينها الملاك الذي تسلل لي من السّماء والمعجزة التي ظننتُ إنها تحققتْ حان موعد نهايتها !

اتجهتُ نحو روحه أصرخ لاتتركني وأمي تشدني وتقول: مع مَن تتكلمي؟ حينها انقطع العقد وسقطتْ حبات اللؤلؤ وتدحرجتْ نحوهُ وكأنّها هي الأخرى تريد أن تودعهُ !

تقدم باقر نحوهُ ليتأكد من سلامة النبض والجميع ينتظر منهُ أن يخبرهم مغمى عليهِ لا أكثر من ذلك إلا إنّهُ أجهش بالبكاء، حينها أعتلى الصراخ في القاعة وأنهار والداهُ وإفترشا الأرض يقبّلانهُ ويتوسلان اللّه برجوع ابنهما الوحيد.

أطرافي لم تعد تحملني سقطتُ وانا احضنُ يده وباقة الأكاسيا.. حاولتْ ملاك وأمي بأن تساعداني بالوقوف وعجزتُ.

فمسك آدم بيدي وقال: انتِ قوية يا باغاتل .

وقفتُ وهو يرجوني بألا أبكي وأنا أرتجف خوفاً واتفجر حُزناً ثم قبّلتُ يده وقلتُ لهُ خُذني معك، وفجأة حلّتْ العتمة وثُقل السمع وعمّ السكون.

****

الفصل الخامس

Salahab

الموت هو توقف أبدي للوعي والشعور، ليس مجرد نهاية بسيطة، وإنما متغلغل في الحياة يدفعنا بشكل متناقض يوجب علينا الحذر وننحني إجلالاً إليهِ، راضخين لهُ رغم كراهتهُ، ونرى غالبية الناس يتفقون على رغبة التأخر في حتمية مجيئه، وفي خضم مطالب الدنيا نتناساهُ و نجعل منهُ أمراً آجل غير عاجل، رغم جهلنا بموعده إلا إننا نعترف بأنهُ حقٌ على الجميع .

أعتدتُ أن أتقبل فكرة الموت وخاصة الموتى لم يتركوني يوماً، وأعلم بأني سائرة حتماً اليه بجهلي في مكانهِ وزمانهِ.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ..) *

(أيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ..) *

---

*سورة آل عمران / آية ١٨٥ .

*سورة النساء / آية ٧٨ .

لاتزال الحياة تعلمنا أن الوجود الإنساني سيتم تسليمه الى الموت والإنسان يراوغ فكرة الرحيل بمهارةٍ عالية، ليس ثمة انسان بمنجى عن الموت، ولكن مرارة الموت نشعر بها عندما نلتمس حسرة الفقد بأحد أحبابنا حينها لاشك سنمقتُ الموتَ ونتناسى بأنهُ قدر الجميع دون استثناء!

الظلام هو اللحظة الإستثنائية التي أعود اليها للهروب من جاثوم الحياة القاسي، لطالما كنتُ فريسة الخوف منذ الطفولة حيث رماني القدر فيه دون رأفة ولم أجرؤ على الشكوى.

الى أن داهمني آدم والذي كان ظهورهُ يتحدث بتلقائيةٍ عن حُبه وهيامه وأخرجني من الظلمة المحيقة بي الى نور المسرة بعدما توشجتْ الأواصر بيني وبين السعادة رحل مَن رواني الحُب وأطعمني التفاهم .

فتحتُ عيني، وجدتُ نفسي في المستشفى وقربي والديّ وأختي لرُبما كانوا يبكون على سوء طالعي .

نهضتُ كالمجنونة ابحثُ عن آدم وانادي اسمهُ لم أنلْ شيئاً سوى مجيء الممرضات والطبيب ليحقنوني بالمهدئات لأعود لأحلامي المستحيلة ولعزائي الصامت.

ومضيتُ على ذاك الحال لأسبوعٍ .. وبعدها خرجتُ

من المستشفى وفي داخلي ألم يفيض مني محال أن يتلاشى أو يغرق في النسيان.

ذهبتُ الى البيتِ وكان كُلّ من يراني ينظر بأسىً وعطف على حالي .

عندما وصلتُ وجدتُ الكثير من اصدقائي الهامسون بإنتظاري حاولوا مواساتي وبحثتُ عن آدم ولكني لم أجدهُ بينهم.

وحال دخولي الى غرفتي وجدتُ باقة الأكاسيا على سريري، فحضنتها وبكيتُ بحرقةٍ وادركتُ حينها ما ترمز اليهِ من فراق.

وكأنه كان يعلم برحيله ويعلم بأني سأحتفظ بحُبي لهُ ماحييت.

ثم ذهبتُ الى بيتهم مع أبي وكان السيد ادوارد وزوجته بحالٍ لايوصف، ودخلتُ غرفتنا واخذتُ منها كلّ التحفيات والصّور التي جمعناها خلال رحلاتنا .

وحينها دخل آدم ركضتُ نحوهُ باكية

- اعلم بأنكِ في وضع اِستثنائي وتعلمين في المجهول رحلة موت الجميع .

- أين المجهول مني لماذا تريث بالمجيء لي ؟

لا أريد الحياة من دونكَ.

- هـذه التخمينـات والتكهنـات سـتفترس افكـاركِ وستزيد من مخاوفكِ وكرهكِ للحياة وستصبح لكِ هاجسا يلاحقكِ. نحن معاً هنا أو هناك فإنتابتني أمامه كالعادة اقصى درجات الرضوخ.

- ماذا افعل حينما اشتاق اليك؟

- سأكون قربكِ . وتذكري بأن الجميع سيرحلون وسنلتقي لاحقا دون فراق فقط اصبري ألا يجدر بكِ أن تذكريني عند كلّ صلاةٍ ودعاءٍ؟ كوني بخيرٍ فأنتِ جنتي في الأرض.. ورحل.

بدأتُ افكر بكلماتهِ وسلامة منطقهِ ولكن أي صبر يجعلني أتقبل نفسي أرملة في يوم زفافي! وذكرى ميلادي الذي ظننته سيصبح مبهجا احتفظ بحزنهِ وبالحسرة المتجددة مع كلّ عام فمكابرة الحاضر لم تهزم خوفي من المستقبل ولاحتى ألم الماضي.

بدأتُ استذكر حلمي الأول به بأنهُ سيموت وسخرتُ من تفسيري الذي كنتُ أردده بأنهُ سيطول عمره حسب ما عرفته من تفسير إبن سيرين!

وكأني رجعتُ الى نقطة الصفر .. أي قدر هذا أن أكون ‹أنا سلطان جنّته في الأرض وسلطان هو سلطان جنّتي في السَّماء ؟

بعدما شعرتُ بطعم الحياة عدتُ الى العتمةِ الحالكة !

رجعتُ الى الوحدة، وأنا انصتُ للصوتِ الداخلي لاتوجد فرحة كاملة هنا فالحياة زائلة !

مازلتُ في دهاليزِ الوحدة، وفكرة الموت، والفقد لاتفارقني ولكن كأن الموت أول مرة يطرق باب أحبابي، وتشابكتْ تفاصيل حياتي وأصبحتْ هيئتها مبهمة بعد فراق آدم الرجل السّامي كأبطال الأساطير وملائكة العالم الآخر.

اعتدتُ أن أخرج من كابوسٍ لأقع في كابوسٍ ثانٍ ولكن متى سأستيقظ من هذا الجاثوم الأبدي؟ ويصدح في رأسي سؤالاً مُلحاً هل أنا ميتة أم نائمة؟

مؤلم هذا التيه وأنا وحدي أواجه الخيباتِ المتتالية!

أنا بين الموت واللاموت أتوق شوقاً للموت، فلم تعُد هذه الحياة تناسبني فأنا بحاجةٍ لحلولٍ جوهرية .

فقدتُ كبرياء مواجهة الدُموع، حينذاك دلف آدم أمامي وتمتم بإسمي قائلاً:

سلطان أعلم إنّ لديكِ رغبة في الإنتقام من زمنٍ قمعَ سعادتكِ سلطان.

وكانتْ في داخلي رغبة تتجلى في الموت بعدهُ، ولكن إبتلعتُ تلك الرغبة، واكتفيتُ بإخباره:

سلطان بأنني في أعلى درجاتِ الوحدة بعدكَ سلطان .

- أصلحتُ لكِ مزاجكِ بكلّ مفاهيم الحُب وان كنتُ لا أجيد الإفصاح عن ماهيته الحقيقية، أرجوكِ إجعلي النجاح بديلاً عني.

- انتَ الوحيد الذي شعرتُ معهُ بالسعادة الحقيقية فلا أنيس لي بعدك سوى دموعي.

- هل هذا البكاء خشية النسيان؟ فالفراق غابة تثمر بالنسيان.

- ابتلعتُ دموعي وأجبتهُ: وكيف لي أن انساك بعدما استوطنتَ ذاكرتي؟

- صمتَ كالمعتاد عندما تأخذه أفكاره بعيداً، وقال: لاتكوني ضحية لليأس.

- أحتاج لأعيش معكَ الحياة من جديد.

- ها أنا قربكِ وفي ذاكرتكِ، اسمحي لحلمي ان يتنفس من خلالكِ وبهذا سأبقى على قيد الحياة.

- كيف لي ذلك؟

- أريد منكِ ادارة مؤسسة المصطفى الخيرية لرعاية الإيتام، وأنا سأكون سعيداً وفخوراً بكلّ ماتقدميه من

دعمٍ ورعايةٍ وبعونِ اللّه سيكون النجاح حليفكِ، وكلّ التفاصيل في الوصية في الخزنة في مكتبي .

بدون تفكير وافقتُ وقلتُ لهُ:

- سأعمل جاهدة لأحقق البعد الإنساني لِمشروعك على أرضِ الواقع.
- سأكون قربكِ ياجنّتي . ثم رحل .

مضى وتركني أبتلع غصة الحسرة ، خليط المشاعر غزا قلبي التفاؤل واليأس، الصّمود والإنهيار واسأل نفسي كيف لي سأقدم على إدارة مؤسسته وأنا في قمة الحزن والوهن ؟

أوخزني ضميري الذي لايعلاهُ ألم، بألا أترك حلمهُ الإنساني وألا أستسلم لثقلِ هُمومي .. لن أخذلهُ .

فقررتُ أن أنكر الواقع وأتمادى فيه وألا أعترف بالفقد إطلاقاً، فهو مازال قربي اتوجس خوفه عليَّ !

وجاء الصَّباح واكتحلتْ عيناي بالسُهاد، وانطلقتُ نحو بيت العم إدوارد وعزمتُ على إصطحاب والديّ معي وكلمتهم بشأن الوصية ولأول مرة أجد نظرة إستخفاف لي، وارتبكتُ ارتباكاً شديداً من أن يصدقوا الظن السيء بي وكأني على عجالة في الإفصاح عن الطمع بالإرث!!

نظرتُ اليهم مليًا وأخبرتهم بأنهُ أوصاني بإدارة مؤسسته الخيرية من بعده فتهاوتْ اتهاماتهم خجلاً.

تداركتُ الأمر ورافقوني لمكتبة آدم وفتحوا الخزنة ووجدوا الوصية وتلوا ما سُطر فيها، ونظروا لي بدهشةٍ وقال العم إدوارد:

- مابالكِ تتقدمي للشقاء مسرعة، مازلتِ مشتتة الأفكار وعقبات العمل كثيرة!

- ‹لن يخذلني اللّه مادمتُ واثقة بهِ سلطان. هكذا أجبته

حينها نظر والديّ بتوجس وكأني أخطو للتهلكة!!

وقلتُ لهم: ألا أحبهُ؟ ألا يستحق أن أفتديه وأحقق حلمهُ؟

اغرورقتْ عيونهم بالدُموع وقالوا: نعم ..حققي حلمه.

ثم طلبتُ منهم أن أزور معهم قبر آدم قبل الذهاب الى المؤسسة، فسادَ الحُزن واعتلى البُكاء.

في مساء يوم الأثنين ٢يوليو٢٠٠٦ أتصل باقر ليخبرنا بأن سالي سينقلها للمستشفى لأنها ستلد، ذهبنا مسرعين اليهم ، والحمد للّه تلقينا نبأ رزقنا اللّه بصبي وهنا تآكلت دقائق القلق وتوقف الخوف.

وحملتُ الصغير وكان جميلاً رغم ملامحه المنتفخة وبقتْ أمي معها وعدنا الى البيت في وقتٍ متأخر ولم اتمكن من

النوم وقضيتها في قراءة القرآن والصلاة، وفي صباح يوم الثلاثاء ذهبنا الى المستشفى وفاجأوني بأن الصبي أسموه آدم مشاعر ممزوجة بين البسمة والدمعة ولكن الذي متأكدة منهُ بأني سأنادي أسمهُ كثيرا لعلّ هذا ماسيريح شوقي لمناداة أسمهُ ولو بجزءٍ يسير.

وبعد ذلك بيومين ذهبتُ مع العم إدوارد الى المؤسسة وقابلنا السكرتير السيد أمير وكان ذا هيبة ووقار، بالإضافة الى بقية العاملين الذين حاولوا بدءا بمواساتي ثم وضحوا لي اساسيات عملهم وأطلعتُ على الملفات وعلى آلية عمل المؤسسة وأخبروني بأني لستُ مجبرة على الدوام يوميا يكفي حضوري حتى لو اسبوعيا .

طلبوا مني أن أجلس على كرسي المدير وكان يعتلي وجوههم خليط من مشاعر الحزن لفقد مديرهم والسعي لبث الحياة في ارادتي المتهالكة وقالوا بإيمان:

- قدر اللّه وماشاء فعل .

نظرتُ الى العم إدوارد كانتْ قبضتاهُ على ركبتيهِ وهرُ رأسهُ بإستحسان، فوافقتُ وكُلّي استسلام !

الخيبة ومرارة الفقد التهمتني حينما جلستُ على كرسي

آدم ، انفجرتُ بكاءً وحاولوا ان يُصبّروا قلبي المفجوع مايقارب شهرين وفي تلك اللحظات، موجات الحماس

وصلتني بدخول آدم كان حضورهُ الصامت مهيمنا على أفكاري المشوّشة وحسرتي المكبوتة، وتقدم نحوي بإبتسامة مشجعة قائلاً:

- لايليق بكِ الإنكسار هذا الدار بحاجة مَن يبث فيه الحياة .لاتخذلي أملي فيكِ.

- أجبتهُ أعدكَ أنني لن أستسلم .

حينها لاحظتُ الجميع ينظر لي نظرة شفقة على أرملة فقدتْ عقلها!

بعد ذلك اقترحوا عليّ الرجوع الى البيت للراحة، والعمل سيُنجز كما هو مقرر ومتى ما أكن مستعدة للعمل فالمكتب في انتظاري ..لم أشاطرهم الرأي وافقتُ ورجعنا فوراً .

وفي طريق العودة لمحت أمرأة سوف يدهسها العم إدوارد فصرختُ وقلتُ لهُ:

- توقف ياعمي ستدهس أمرأة !!

اوقف السيارة وهومذعور وقال:

- مابكِ باغاتل لايوجد أحد يا ابنتي .

اعتذرتُ منه وأنا أمسح دموعي .

وحينما وصلنا قال لي:

- ارجوكِ يا ابنتي لاتسمحي لحالتكِ تتدهور أكثر لماذا لا تراجعين معالج نفسي فما تعرضنا له ليس بالسهل وخاصة أنتِ !

- أجبتهُ : لاداعي للقلق ياعمي . أن احتجتُ لذلك سأخبرك.

عدتُ الى البيت وجدتُ الجميع في انتظاري لم اتمكن من محادثتهم أكثر من أن اخبرهم كان ذهابي الى المؤسسة مفيداً، أخذتُ حماماً سريعاً، ثم جلستُ أتأمل وجهي أمام المرآة وأنا أبكي بصمتٍ، نظرتُ الى صورة آدم وتخيلتهُ قربي وهو مبتسم، تنهدتُ، فجأة تعالتْ الطرقات على باب الغرفة، هتفتُ بصوتٍ مختلج:

- مَن هناك ؟

جائني صوت ملاك من وراء الباب:

- باغاتل .. لديكِ ضيف وهو السيد أمير.

- حسناً ..لن اتأخر..أخذتُ نفساً عميقاً وخرجتُ لأكلمهُ.

القيتُ التحية عليه وجلستُ أمامهُ وكان مضطرباً، ثم بدأ بالكلام:

- المعذرة ست باغاتل ولكن لدي موضوع خاص ولم اخبركِ به أمام السيد ادوارد

- تفضل ماهو ؟

- في الحقيقة استاذ آدم- رحمه اللّه- أوصاني بأن اعطيكِ هذه الحقيبة انّ فارق الحياة وأعتذر لأني تأخرتُ كثيراً خشية منكِ.

- لاعليك ..كلي فضول لأرى ما في داخلها فوجدتُ حاسوباً ومفكرة .

- ممتنة اليك استاذ أمير، لم يخطأ آدم عندما جعلك ذراعهُ اليمنى .

وهتفتُ على أبي لِيجلس معهُ واعود الى غرفتي لعلي أجد في هذه الحقيبة ما يخفف من لوعتي .

حاولتُ أن أشغل الحاسوب لم يكن مشحوناً فأوصلتهُ بالكهرباء، وبدأتُ أتصفح المفكرة لم أجد فيها سوى تواريخ لمواعيد اجهلها، الى أن وجدتُ صفحة كتب فيها:

عزيزتي باغاتل وأنتِ تقرأين هذهِ الكلمات، سأكون أنا في العالم الآخر حيث الوجود الحقيقي، ولكن عليكِ أن تعلمي أنا أحبكِ في كل زمان ومكان، فالحُب الحقيقي لا يحده شيء.. كوني صامدة قوية كما عرفتكِ.

رمز الحاسبة هو معنى اسمكِ كما أفضل صيغته !.

قبلتُ كلماتهُ وانفجرتُ بكاءً، وشغلتُ الحاسبة تسارعتْ نبضاتي كتبتُ الرمز (هديّة الرّب) تم رفضه شعرتُ بالخيبة ولكن تذكرتُ ماكان يفضل (هديّة اللّه).

نجحتُ المحاولة وبدأتُ أبحث فوجدتُ مجموعة من صوره العائلية بمختلف مراحله العمرية، وجدتُ حافظة أخرى بها تسجيل صوتي له أخبرني به:

- أعلم بأنكِ بحاجة لسماع صوتي بين وقت وآخر لذا سجلتُ لكِ هذا المقطع . لعلّهُ يخمد لهيب الشوق سيدتي، انا حريص على كتابة تفاصيل حياتي ولكن صورتُ كل ماكتبتهُ، وحرقتُ كل المفكرات ولكِ كل الحق ان أهديكِ حياتي وهي مكتوبة دون أي خجل منكِ وأنتِ تقرأيها ياجنّتي.

بحثتُ أكثر فوجدتُ حافظة بعنوان مذكراتي ولحظة مافتحتها كان فيها مجموعة حافظات معنونة بأرقام السنين.

دخلتُ على الحافظة التي تحمل سنة ميلاده (١٩٦٩) لأني أستغربتُ من وجودها، فوجدتُ فيها صور عديدة لما كتب عنها ..بدأتُ أتابع حسب الترقيم الموجود .. أدركتُ أنهُ مثلي تماماً فهو يذكر لحظة ولادتهُ وكيف كان متذمراً من

واقع غامض يفرض الطفولة عليه ويقيده بحياة مؤطرة بين عالمين مختلفين، وكنتُ أتابع بدقة اختلاجاتهُ وجدتهُ استسلم للواقع وتقبل فكرة التعايش مع عائلته كما فعلتُ أنا!!.

وأنا اتصفح ذكرياتهُ لم أجدها تختلف عن حياتي كثيراً حتى في تفاصيل فارسة أحلامهُ أبدع في رسم لوحة ملائكية عنها، وفوق ذلك يقول أن باغاتل واقع أجمل من الخيال الذي تصورتهُ .

ولكن عظمة وأهمية الموت سيبعدني عنها.

قضيتُ ليلة مضجرة جداً وأنا أقارن بين الأحداث التي تكررتْ في حياة كُلّ منا !

ياترى لماذا الألم يطرق بابنا؟ ولايهاب صدى ضحكاتنا متجرد عن الشفقة بكلّ جسارةٍ وحرية.

حل التأمل العميق محل الخوف ولم اتمكن من تقبل هذا التغير المفاجئ الذي قطع احشائي!

ونظرتُ لجانبي فرأيتُ آدم واقفاً اتجهتْ صوبهُ، وضع يديهِ على كتفي وهو يبتسم كأنّه يحاول أن ينتزع مني الكآبة والحزن الدفينين، فقلتُ لهُ:

- أي حياة أحياها بعدك أنا كنتُ قوية حالما عرفتك أصبحتَ سر قوتي والآن غيابك سبب ضعفي ولوعتي .

- لاعليكِ .. أصبري وأنا قربكِ .

- أين أنتَ في وقتٍ يمزقني فيها فقدك ؟

- صدقيني أشعر بكِ ولكن اعتني من بعدي بإكمال رسالتي المتواضعة، وجئتُ لأقول لكِ ماكتبتهُ كان موجزاً لحياةٍ سريعة وددتُ أن تعرفي شيئاً، لستِ الوحيدة في هذا العالم، فيوجد مَن يعاني مثلنا ولكن الحياء يمنعهُ من الإفصاح ومهما طال العناء سندرك النهاية.

- نعم صحيح .. لكني غريبة بعدك.

سمعتُ اطلاقات رصاص في الخارج أيقضني من شرودي من العالم ، وحينها قال:

- لاتخافي وتأكدي لن يخذلكِ اللّه ..ابتسم ثم رحل.

هتف أبي عليّ فجراً قلقاً لأننا نمر في وضع متأزم في (حرب تموز) [١٠]

---

[١٠] حرب لبنان الثانية (حسب التسمية الإسرائيلية) هي العمليات القتالية بين قوات من حزب اللّه اللبناني وقوات جيش الدفاع الإسرائيلي والتي استمرت ٣٤ يوما والتي بدأت في ١٢ تموز (يوليو) ٢٠٠٦ عندما شن حزب اللّه عملية الوعد الصادق، أدت إلى أسر جنود إسرائيليين فبادر الجيش الإسرائيلي هجوما جويا على جنوب لبنان مستهدفا محطات الكهرباء ومطار بيروت وشبكة من الجسور والطرق مما أدى إلى مقتل العشرات، تحت تعليق إعادة الأسيرين إلى إسرائيل.

في بداية المواجهة وجه الجيش الإسرائيلي تحذيراً لسكان جنوب لبنان بإخلاء المنطقة بالكامل والتوجه شمالاً وقد أعلن في لبنان عن استنفار مؤسسات الدولية بما فيها المدارس لمساعدة النازحين واستقبالهم.

وكما ذكر أن عدد المهجرين في لبنان قد بلغ ٦٠٠ الفاً وقد توجه النازحين إلى مدينة صيدا التي استقبلت أكثر من مئة الف نازح وتوزعوا على المدينة وشرق صيدا.

كذلك في مدينة جزين المدينة المسيحية استقبلت أكثر من أربعة آلاف نازح وهم بغالبيتهم من شيعة الجنوب .

في مدينة بيصور القرية الجبلية التي تبعد نحو ثمانية عشر كيلومتراً عن بيروت استقبل الأهالي أكثر من مئتين وسبعين عائلة، وفي مناطق الشمال تكررت الصورة واضطر الأهالي بعد امتلاء المدارس لتأمين غرف الفنادق مجاناً للنازحين.

استقبلوهم في البيوت وهم يرفضون إطلاق عليهم اسم نازحين أو مهجرين بل يؤكدون " انهم ضيوفنا، ينزلون في بيوتنا ونأكل وإياهم سوية وما يطالهم يطالنا".

فعلى الرغم من الإختلافات السياسية في لبنان، يتوحد الجميع لمواجهة المصائب هكذا هو الشعب اللبناني هكذا هم العرب.

وكان لخالي فراس وزوجته منى اللذان يقيمان في منزل جدتي سناء ـرحمها اللّهـ في مدينة صيدا دوراً في استضافة اهلنا من النازحين وكنا على اتصال دائم معهم، أما عمي ياسين وعائلته انتقلوا الى منزلنا منذ اليوم التالي من اعلان الحرب.

كنا نجتمع يومياً معهم بالإضافة الى سالي وباقر وعمي مهدي وابنتهُ ملاك كان يجمعهم أبي على التحليل السياسي غالباً وكنتُ أهرب خلسة من مجالستهم عند انشغالهم بحوارهم الى غرفتي لأكمل مسيرة حزني واحتضن وحدتي ولكنهم لم يتركوني كثيراً لمفردي، فكانتْ أمي منشغلة جداً في اعداد الطعام للجميع، فهي لا ترغب من أن ترهق أحداً من ضيوفها حتى في مساعدتها، الا انها رغم انشغالها لم تكن تغفل عني! واستمر القتال الضاري الى أن وقعت الغارة الأخيرة في الساعة ٧:٤٥ صباحا في ١٤ اغسطس ـ آب ٢٠٠٦ واستهدفت بساتين الأطراف الشرقية لمدينة صور وبعد ١٥ دقيقة من هذا القصف دخل تطبيق قرار "وقف الأعمال العدائية" الذي نص عليه (القرار ١٧٠١)[١١] لمجلس الأمن الدولي حيز التنفيذ.

---

[١١] القرار ١٧٠١ : نص على إنهاء العمليات القتالية من كلي الجانبين وإضافة ١٥٠٠٠ جندي لقوة "يونيفيل" لحفظ السلام مع انسحاب الجيش الإسرائيلي إلى الخط الأزرق وانسحاب قوة حزب اللّه إلى شمالي نهر الليطاني واانتشار الجيش اللبناني في الجنوب اللبناني.

النهاية لهذه الحرب هي انتصار حزب اللّه بمنظور الحزب وحلفاءه لإفشاله الأهداف الإسرائيلية من الحرب، وانتصار إسرائيل بمنظور إسرائيل بسبب ارتداع الحزب عن مهاجمتها مرة أخرى !

يا ترى متى يحل السلام في الوطن العربي؟.. والطرقات تحولتْ إلى ساحات حرب لو دهسوك فلن تجرؤ على رفع نظرك إلى الفاعل كي لا تُدهس مرة ثانية.

قتلوا الأمل بالمستقبل، وكل من يضج بالتفاؤل يكون بحاجة إلى علاج نفسي، ينهبون والشعب لا يحاسب بل يكثف من صمته ليحمي الزعماء والساسة بدمه ، يموت البعض امام المستشفيات الخاصة لأن المستشفيات الحكومية لاتطور بضمير، المدارس الحكومية لاتضاهي المدارس الخاصة، ارتفاع مؤشر البطالة والتزاحم عند مراكز الضمان، لاتخلو المؤسسات من المحسوبيات والرشوة ، تفاوت طبقي بين الموظف والموالي لروح الشر، تفشي الجريمة لما تعرضت له الشعوب من احتقانات نفسية، والنهب مستمر لخيرات البلاد ولايوجد من يحاسب !

كل منا منشغل عن اخيه الذي نال منه العوز والحرمان متكئاً على عكاز الصمت كي يحيا مع اسرته ولايكن مجهول المصير وإذا تفجرت طاقاتهُ ستكون في غير بلادهِ ..في احضان الغربة ! .

متلازمة الصمت سيطرتْ وتدفع مَن ادمنها الى الهاوية الى أحضان الشيطان الى ادعائات واجادة التناسي والنسيان ومَن لايطالب بحقه المسلوب لاحق لهُ . والشيطان يرحب بمَن وجد ضالته معهُ بغية الجاه والمال متناسيا ان الجميع راحلون وزائلون !!

نخشى ظلم العباد وننتظر رحمة رب العباد.. وكأننا سُلبنا من كلّ شيءٍ سوى انتظار الفرج بالدعاء .

نعلم أن الدين الإسلامي في بلادنا ثورة على الظلم والعبودية فهو مولد الحضارة في تحقيق الحرية بعيداً عن العبثية .

نحن مسلمون ولكن الحقد تسلل لنا لإرساء قواعد التناحر الدموي وتلف القيم الإنسانية الرفيعة .. إننا نلعب في النار في استغلال مأساة الفقر في إفساد العقائد الداخلية للفرد وهذا بدوره ساهم في القضاء على تميزنا الديني وانتمائنا القومي بفلسفات واعذار مرقعة!

متى نطالب بتحقيق عدالة الإسلام وكل الاديان السماوية .. متى نرتقي بطموحنا ونتخلى عن سفسطتنا؟ الى متى مستورد و الثقافات والقيم المستعارة يمسكون بمقاليد الأمور؟ شريعة اللّه ليست فلسفة تقبل الصدق والكذب ولكنها حقيقة إلهية فالبعد عن اللّه دليل على افلاس الدين، وهذا ماجعل الشعوب تحلم بالسلام دون أن

تحارب، وتحلم بالجنة دون ان تموت!! ومن اصعب الصعاب أن تعيش مع ناس يظنوا أنفسهم دائماً على صواب كماوصفهم د.علي شريعتي ـرحمه اللّه ـ!

الى متى نصمت لأننا نخاف ونعلم أن الخوف لا يحرر الشعوب؟.. أيعقل ان يكون الموت هو الحل النهائي لإيقاف الظلم؟

اعرف أن صراع النقائض مستمر، ويستمر صراع الحق والباطل مادامت الحياة ولكنها تساؤلات أضنتْ أفكاري دون مجيب ..!!

في مساء يوم الثلاثاء ٢٦سبتمبر ٢٠٠٦ / ٣ رمضان ١٤٢٧حاولتُ أن أهرب من ضغوطي النفسية التي بنمو متزايد فكنتُ أجالس الصغير آدم لساعات وأكلمه دون ملل وكان يتجاوب معي بإبتسامات وتارة أخرى بصرخاتٍ، وكان الجميع غير راضيين على نحول جسمي ويعود ذلك لصيامي طوال الأشهر السابقة .

وكلما كنتُ أتواجد في المؤسسة أشعر بسمو الإنسانية التي جعلني آدم التمسها بكل ارادة وعزيمة.

وكنتُ اتابع حال الأيتام، واسعى جاهدة لتحقيق مايرغبوه، وكانتْ ضحكاتهم تطفئ ناري، وكأني أملكُ هذه الدنيا الكبيرة!

وبعدما كنتُ افارقهم تنتابني نوبة بكاء تفقدني السيطرة على نفسي، وأدلف لأصلي ركعتين شكر للّه على مامنحني من نعمة وجود والديّ قربي لسندي ومصدر قوتي.

وجود الوالدين بحياة أي منا نعمة لايشعر بها الا مَن فقدها ..

ممكن علاقتنا معهم معتدلة وليستْ مثالية .. لكوننا بشر غير مثاليين وان كانتْ حتى المثالية نسبية حسب المجتمعات وتباين ثقافتهم.. ولاننكر غالباً مايكون الخلاف معهم نتيجة حرصهم المبالغ به علينا .. فمن المخزي أن نقسي عليهم و نجحد فضلهما بعد فضل اللّه علينا.

مرتْ الأيام كما اعتدتْ عليها، وآدم شحّ حضوره لي وتلاطمتْ الأفكار في ذهني وقررتْ أن أسافر الى العراق- كربلاء لزيارة سيد الشهداء الحسين-عليه السلام- وباقي المراقد المقدسة .

وحاولتْ جاهدة لأقنع أبي وأمي راجية موافقتهم على السفر الى العراق وحاولوا اقناعي لتأجيل هذا السفر بسبب تدهور الوضع الأمني في العراق .

في يناير ٢٠٠٧ أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش استراتيجية جديدة للعراق يتم بموجبها إرسال آلاف الجنود الأمريكيين الجدد إلى العراق بهدف تعزيز الأمن في بغداد.

وبعد محاولات عدة دامت لشهور، وفي يوم ٢٨يناير٢٠٠٧ / ٩ محرم ١٤٢٨ وافق أبي على السفر، وأقترح أبي أن يسافر معي في نهاية ابريل المقبل على أمل أن تستقر الأوضاع الأمنية ويتيح لنا أن نصل بسلام الى بلد الخيرات العراق الجريح ولكن أمي لم تكن سعيدة بموافقة أبي فهي تخشى الحروب ومع ذلك عرضتُ عليها أن تشاركنا السفر إلا انها رفضتْ ذلك العرض بكل حدة.

منذ مايقارب عام عن رحيل آدم لم أشعر بالسعادة إلا إني الآن في داخلي شعرتُ بسعادة ولا أعرف لماذا؟

غلب على أفكاري رغبة السفر وفي صباح اليوم التالي ذهبتُ لزيارة آدم كي أخبره بما عزمتُ عليه وأحقق ماحلم به يوماً ما.

وذهبتُ للبحر لأتنفس الأمل من جديد وتذكرتُ كثيراً مما مررتُ بهِ في حياتي وكم غالي فقدته طيلة حياتي .. وكان الهامسون حولي محاولين مواساتي لأمسح دموعي فشعرتُ بأني مازلتُ لستُ وحيدة .

وعدتُ الى البيت أفيض حزناً، لم أفعل شيئاً سوى أن أصلي ثم رميتُ جسدي على التخت لأجد نفسي أمشي وسط ازدحام ناس لاأعرفهم أطالوا النظر لي وأنا أمشي بزي الصلاة الأبيض حينها سمعتُ صوتاً اجهل مصدره يهتف: هنا سيارة مفخخة أهربوا !!

وفي ذات اللحظة انفجرتْ قبل أن نخطوا خطوة واحدة .. وكأن الهواء تصلب في رئتي .. فتحتْ عينيّ مرعوبة فوجدتْ نفسي على التخت.

شعور جديد أنسل الى نفسي زاد سلسلة تساؤلاتي وجعلني أصمت وأعدهُ سراً جديداً لايسعني أن أبوح بهِ لأحد ولم أتمكن من النوم بعد ذلك الحلم .

فقررتْ أن أمسح كلّ مذكرات آدم وفعلتْ ذلك .

مرتْ الأيام بثقل الى أن جاء يوم الثلاثاء ٢٣ نيسان ٢٠٠٧ الذي انطلقنا به من مطار بيروت الى مطار بغداد، وبكتْ أمي لأنها لأول مرة تفارقني، ولم تتأخر عن وداعنا سالي وآدم الصغير وملاك فالجميع كانوا في المطار وفي اللحظات الأخيرة تأملتْ تلويح أيديهم وكأنهُ الوداع الحقيقي لناس أحببتهم وأحبوني طيلة السنوات الماضية.

وأعلم بأن ضميري لم يرحمني أذا ماتعرض أبي لخطرٍ بسببي .. لم أكلم أبي طول الوقت فأكتفيتْ بقراءة القرآن الكريم الى أن وصلنا الى مطار بغداد وكان طابع الحرب لا يخلو من الواقع، وأبي يطيل النظر لوجهي وكأنه كشف هروبي من الكلام أو لعلّه علم بأني قلقة عليه أكثر مني.

ومع سائق الأجرة ذهبنا الى منطقة الكاظمية التي فيها مرقد الإمام موسى الكاظم ومرقد حفيده الإمام محمد الجواد ـعليهما السلامـ .

ومررنا في شارع حيفا والسائق يحكي لأبي بأن هذا الشارع أسموهُ شارع الموت لكثرة القتل فيهِ !

الإعصار الطائفي ضرب بلا رحمة معظم أحياء بغداد وتهجير مخيف للشيعة والسنة على حدٍ سواء قامتْ بها مليشيات مهووسة بالقتل.

نزلنا في فندق العقيلة بعدما أخذنا قسطاً من الراحة وبعدها شرعنا للزيارة وللصلاة، وبعدها دلفنا لتناول العشاء وطلبنا الكباب لأنهُ المفضل لدينا، وقال أبي:

- لعلّ هذا السفر سيقتل حزنكِ و يجعلهُ يتآكل .

- نعم أبي ..إن شاء اللّه.

- عليكِ أن تعيشي الحياة ولاتقبري احلامكِ فهذا قضاء اللّه.

- فعلاً .. منطق حتمية النهايات لابد ان نؤمن بهِ، فمثلاً لو أنا متُ فجأة ..عليكَ أن تسعد في حياتكَ وتصبر بعدي لأن فراقي قضاء اللّه.

- هتف محتداً: أي منطق تتحدثين بهِ، أنتِ قطعة مني كيف لي أعيش سعيداً بعدكِ، كم اتمنى أن أمسح هذه الأوهام المغلفة لرأسكِ الجميل.

بعدها اتصلنا بأمي وسردنا لها يومنا، وبقتْ تؤكد على ألا نطيل أكثر من أسبوع ووعدناها بمشيئة اللّه لن نتأخر عن ذلك.

وفي صباح اليوم التالي اتجهنا الى محافظة (النجف الأشرف) وشاهدتْ الأزقة المحاذية للسوق وكثير من محلات الصاغة ومحلات العطور، والألبسة وحينها سمعتْ أبي يوقف السائق وقال لهُ:

- دقائق لو سمحت انتظرني هنا لن اتأخر.

ليترجل نحو باعة الحلويات واشترى علبتين من الدهين وعاد لنا واعطى واحدة للسائق وقال:

- هذه العلبة لكَ، فهذا النوع مشهورين به أهل هذهِ المحلات منذ عشرات السنين.

- شكراً استاذ..كلفتَ نفسك.

وكانتْ تبدو على وجههِ الإستغراب أما أنا فلم استغرب من كرم أبي.

ونزلنا في فندق زمزم ووجدنا حسن الضيافة ، وبعدها توجهنا لإداء مراسيم الزيارة لم يكن الوضع الأمني مثالي إلا انهُ اكثر استقراراً من العاصمة بغداد ، واقترح أبي أن نبقى يوماً آخر في النجف للذهاب الى مسجد السهلة وزيارة المراقد والمقامات، لذلك قال:

ـالجمعة صباحاً إن شاء الله سنذهب الى محافظة (كربلاء المقدسة) .

وهنا شعرتُ أن قلقهُ بدأ يتلاشى أما انا فلم أكن قلقة سوى عليه، لستُ ضد الموت ولكن إن مُتُّ أنا أهون عليّ مما أفقدهُ أو أفقد أي عزيز على قلبي.

وبفضل من الله زُرنا وابتعنا هدايا لأمي واختي وملاك ومدللي الصغير آدم وهذا بعدما اتصلنا بهم، وأبتعتُ لي جادر صلاة أبيض اللون شدّ أنتباهي.

وإجتاحتني رهبة عندما زُرنا بيت الأمام علي ـعليه السلامـ تجولتُ فيهِ وكنتُ أتأمل بزهد سيد البلغاء وزوجته ريحانة رسولنا المصطفى عليهم أفضل الصلاة والسلام.

في صباح يوم الجمعة انطلقنا صوب كربلاء المقدسة ونزلنا في فندق السفير وكانتْ ضيافتهم مميزة وراقية وبعدما تناولنا الغداء اتجهنا لزيارة سيد الشهداء سبط الرسول الأعظم ـ عليه أفضل الصلاة ـ وتأخرنا في الزيارة

بسبب الإزدحام ومن ثم توجهنا الى أبي الفضل العباس وعندما انتهينا من زيارتهما وللّه الفضل، في طريقنا الى الفندق قال أبي:

- وعدتكِ أن نزور معاً ووفيتُ بوعدي ولولا الأوضاع لذهبنا للإمامين العسكرين ـ عليهما السلام ـ

- نعم ..سعيدة بوجودكَ في حياتي

- أنا اكثر ..ولكن لديّ رغبة أن تعودي كما أنتِ وأن تصبري ولاتحزني.

- بالتأكيد سأصبر لابدّ من أن رحمة اللّه ستسعني.

- حسناً.. بعد الغد إن شاء اللّه يوم الأحد صباحاً سنتجهُ الى بغداد كي يتسنى لنا السفر ولانتأخر على فردوس فهي قلقة بشأننا.

- إن شاء اللّه يا أبي.. وشعرتُ بشوقٍ جعله ينطق أسمها بهذه الحرقة.. فأكتفيتُ بإبتسامة وادعة.

أتصلتُ بأمي بعدما ابتعتُ شريحة تخصني واخبرتها على اتفاقنا لن نتأخر عن أسبوع إن شاء اللّه ..فضحكتُ وقالتْ:

- سبقتيني بالحديث لاتتأخروا..ثم أردفتْ: ارسلتُ رسالة على رقم ابيكِ فيها مانريدهُ من سبح وترب وغيرها .. أكدي عليه لأن علي ينسى دوما!

- حسناً .. ياأمي سأفعل ذلك.

وبعد المكالمة ذكرتُ أبي برسالة أمي وقال:

-غداً ان شاء اللّه .

- اذهبْ انتَ للسوق وأنا سأذهب للزيارة مرة ثانية ونلتقي في الفندق. وافق وهزّ رأسهُ بإستحسان.

بعد ذلك غرقتُ في النوم وكأني لم أنم منذ زمن بعيد، الى أن رنّ الجوال وايقظني وكان المتصل أبي وأخبرني انهُ في السوق وسألني أن أنتظره لنزور سوياً.

- أنا سأشرب الشاي واذهب للزيارة وهنالك نلتقي يا أبي.

- حسناً ..

نظرتُ للتأريخ وجدته السبت ٢٨ نيسان الموافق ١١ربيع الثاني ١٤٢٨.. ولم أعرف ما سر اهتمامي بذلك ؟ وكأن لي ذكرى فيه!

نزلتُ أشرب الشاي لمفردي فوجدتُ أنظار الناس متجهة نحوي !!

فقلتُ بسري من الممكن لأني بزي الصلاة ولم أرتدي العباءة .

أتجهتُ للزيارة وانا أخطو بخطواتي انتبهت لزي الصلاة الذي حلمتُ به .. فرأيتُ بجانبي ناصور! وبدأ يخيفني بأن هنا ستكون النهاية الحتمية.

ضاقتْ نفسي للحظات وتولدتْ رغبة بالعودة ولكني واصلتُ مسيري وعندما وصلتُ قرب ضريح أبا الفضل العباس شعرتُ براحة الإنتصار على الخوف، حينها لمحتُ آدم وعيناهُ تتوهجان بإبتسامة النصر ابتسمتُ معهُ ورأيتُ أجدادي وجداتي من بعيد متجهين نحوي ثم نظرتُ الى السّماء لِلحظاتٍ .. وفجأة وأثناء هذا الفاصل الزمني القصير سمعتُ انفجاراً هائلاً يقتحم مابين الحرمين وإعصار لايرحم، توارت الشمس وراء الغيوم واكفهرتْ السّماء !

وكأنها تريد أن تقول هنا الشهادة !

لا أعرف ماذا حصل؟ لا أعلم ماهو لكن هذا الشعور أنسل الى نفسي من خلال الألم، وأستقر في احشائي فوجدتُ آدم قربي وأنا أتفرّس في وجهه، ووميض الإنفجار وعصف النيران يحفا بنا، أما صرخات الرعب كانتْ على نحوٍ غير ملحوظ !!

حينها صدمتني قوة ألقتني على ظهري، وآدم مسك بيدي وهو يقول : لاتخافي أنا قربكِ وكان يمسح الدم من وجهي .

شعرتُ بعقم المحاولة سوى إداء الشهادتين، وبعدها توهج النور الذي أضاء غياهب ماحولي، المملوء بالصبر على الشر والأحزان، توهج النور الذي من خلالهِ سردتُ أسطر الحياة ومالبث الى أن شعرتُ بإختلاجة الموت، وبدأ يتضاءل ويختفي الى أن أختفى تماماً .

ما إن أنطفى ذلك الوميض حتى عدتُ في الظهور كما أنا دون قيود حيث النقاء والخلود..

كانتْ رحلتي قصيرة مايقارب أربعة وعشرون عاما بدأتْ من صيدا وانتهتْ في كربلاء، وأهم ما تعلمتهُ إن التجلي الوحيد والبديهي الأكيد للألوهية هو مبدأ الخير لجميع البشرية، وعرفتُ ذلك بواسطة القلب معرفة قد لايبلغها العقل مع أني أقربها بواسطة عقلي .

الفهرست

ت	العنوان	رقمه
١	الإهْداء	٥
٢	الفصل الأول	٧ ـــــــــ ٣٥
٣	الفصل الثاني	٣٧ ـــــــ ٥٥
٤	الفصل الثالث	٥٧ ـــــــ ٨٣
٥	الفصل الرابع	٨٥ ـــــ ١١٥
٦	الفصل الخامس	١١٧ ـــــ ١٤٨
٧	الفهرست	١٤٩